

# حدث في تلك الليلة

محمود الحرشاني



رواية

منشورات الثقافية  
التونسية





# حدث في تلك الليلة

رواية

الكاتب  
محمود الحرشاني

الترقيم الدولي الموحد : ISBN 978-9938-72-198-0

التعريف

عنوان الكتاب : حدى في تلك الليلة

الصنف : رواية

الكاتب : محمود الحرشاني

عدد الصفحات : 120

الناشر : موقع الثقافية التونسية والمؤلف

تاريخ النشر : 31 جانفي 2022

الترقيم الدولي الموحد : 0-198-72-9938-978

المطبعة : مطبعة دنيا سيدى بوزيد

# الله اء د

إلى أفراد عائلتي زوجتي وابني  
وإلى روحى والدى صالح ومهرية  
وكل أقاربى أحياء وأمواتا.



# الفصل الأول

في مكتب حاكم التحقيق عندما سألني حاكم التحقيق ما هي قصة الوثائق التي وجذناها محسوبة في ملف في درج من أدراج مكتبك وتتحدث عن علاقتك بتنظيم سري مناوي للنظام؟

بهت في البداية.. كان السؤال مفاجئاً بالنسبة لي.. وبعد صمت دام دقائق قلت لحاكم التحقيق : عن أي وثائق تتحدثون سيد القاضي.. أنا لا أعرف أي شيء عن الوثائق التي تتحدثون عنها ولا صلة لي بأي تنظيم سري أو مشبوه ولا أعرف هذه التنظيمات أصلا.

نظر إليّ حاكم التحقيق نظرة فهمت منها أنه يستبطن سؤالاً أخطر وكان جالساً وراء مكتبه.. وفجأة قام

واستوى واقفاً ودون أن يمهلي لحظة واحدة سأله : أسمع  
لا فائدة من الإنكار.. نحن نعرف عنك كل شيء تاريخ  
ميلادك ونشأتك ودراستك في المدرسة الابتدائية ومرحلة  
تعليمك الثانوي ودراستك الجامعية. لا فائدة في الإنكار.  
سمعت. لا فائدة في الإنكار.

قلت له مستغرباً : سيد القاضي أنتم تعرفون عنى  
كل شيء. هذا ممتاز ولكن أنا لا صلة لي بأي تنظيم  
مشبوه. ولا أملك أي وثائق سرية.

نظر إلى حاكم التحقيق من جديد وعاد ليجلس على  
مكتبه ثم ضغط على الجرس الذي أمامه، ولما دخل  
الحاجب قال لي أظنك في حاجة إلى شاي أو قهوة ماذا  
تريد ؟ طبعاً سيكون معها كوب من الماء المثلج.

ودون أن يبطئ الحاجب عاد إلينا بعد أقل من خمس دقائق بصينية عليها كوبان من الماء البارد وكأسان من الشاي الأخضر. أمر حاكم التحقيق الحاجب بأن يضع أمامي كأسا من الشاي وكوبا من الماء ثم أضاف إن شئت أن تدخن فلك ذلك. قلت له معتذرا : - شakra سيدي الرئيس أنا لا أدخن ولا أشرب الشاي فقط أسمح لي بشربة ماء فإنني أحس بشياح في ريري. قال لي لك ذلك وهذا كأسني أنا أيضا إن لم يكفك الماء الذي في كوبك أو أدعوك بکوب ماء آخر. قلت له سيدي الرئيس أنا إنسان مثقف أعيش مع كتبى وأقلامى وصحفى ومجلاتى هي كل عالمي الذى أعيش فيه لى أي طموحات سياسية فمن أين جئتكم لى بهذه الحکایة. لحظتها انتقض حاكم التحقيق، نحن لا نلفق الحکایات. كيف تقول هذا الكلام؟ نحن نتابع تحركاتك من زمان. أنت على صلة بتنظيم سري مشبوه.

وفي مكتبك وجذنا كل الوثائق التي تدل على صلاتك وعلاقتك بهذا التنظيم. سكت برهة ثم أضاف : اسمع. يا .. إذا كنت تريد أن تريحنا وتريح نفسك.. لا فائدة في إضاعة الوقت. الاعتراف أحسن. أجبت مستغربا : سيدى الرئيس.. هل أعترف بشيء لم أفعله ؟.. بماذا تريدينني أن أعترف ؟ كان الوقت قد جاوز الرابعة مساء وقد مضى على وجودي بمكتبه أكثر من أربع ساعات.

قال لي : هل تذكر أنك أحد الذين بشروا ونظروا للثورة ضد النظام ؟ هل أسرد لك عناوين كتبك هذا فضلا عن كتاباتك بأسماء مستعارة ؟ نحن لسنا غافلين يا هذا.

## الفصل الثاني

خرج من مكتب حاكم التحقيق وهو في حالة إعياء، كانت بادية على كل ملامح وجهه ليجلس على أول مقعد اعترضه. ثم أخرج من جيبه علبة السجائر وهم بوضع سيجارة في فمه لو لا أن الحاجب أعلم بأن التدخين ممنوع في هذا المكان. أعاد علبة السجائر إلى جيبه، ووضع رأسه بين كفيه وأغمض عينيه وراح يتذكر من دبر له هذه المكيدة. كيف يقبل أن يجد نفسه متهمًا بالانخراط في تنظيم سري يخطط لأعمال ضد النظام؟ كيف يمكن له أن يقبل مجرد التفكير بقبول هذه الفكرة؟ استحضر كل لحظات حياته.. وهم بالعودة إلى مكتب حاكم التحقيق ليصرخ في وجهه : سيدني أنا لست مجرما.. أنا ابن

مقاوم.. أن ابن رجل كان في طليعة الصفوف الأولى التي  
لبّت نداء الواجب والتحقت بالجبال لمقاومة الاستعمار..  
كان نشيدهم الذي يملأ مهجرهم ويزيد في حماسهم هو  
حمة الحمى.

تمهل قبل أن يدخل ثانية إلى مكتب حاكم التحقيق  
كأنه يريد أن يستجمع أفكاره المشتتة، هو يشعر أن أفكاره  
مبعثرة في هذه اللحظة.. ربما قد يكون ذلك من وقع  
المفاجأة التي لم يكن ينتظراها. ربما لأن آخر ما كان يخطر  
بباله أن يجد نفسه متهمًا بالانضمام إلى جهاز سري  
تدميري. هم ثانية بالوقوف، كانت هناك أفكار كثرة ترد  
بخارطه، كانت الأفكار تتواتد في رأسه كما تتواتد أمواج  
البحر.. فكرة تدفع فكرة، كان يمتحن في سره قدرة كل فكرة  
يقولها لحاكم التحقيق ليدحض بها الاتهام المسلط عليه.

توالدت في رأسه أفكار كثيرة.. أحس بدور في رأسه  
وي حاجته الأكيدة إلى سيجارة وقهوة سوداء بلا سكر. قام  
من مقعده اللوحي وهم بالخروج. عفوا سيد.. لا يمكنك  
الخروج. استغرب كلام الشرطي ولم يأبه به في البداية ثم  
استدار إليه وسأله نعم سيد.. ماذا قلت. قلت لك لا  
تستطيع الخروج من هنا بأمر من السيد قاضي التحقيق.  
قال له ولكن أنا أنهيت الأمر مع السيد قاضي التحقيق. رد  
عليه الحاجب لا أعرف يا سيد ولكن أنا أنفذ الأوامر وأي  
أوامر صدرت لك ؟ قالها للشرطي في لهجة حاسمة لا  
يمكنكم اعتقالي.. أنا رجل شريف. لا أخون وطني. أنا ابن  
مقاومة ساهم في تحرير الوطن. علا صوته وتجمهر عدد  
من الذين كانوا في بهو المحكمة حوله وخرج قاضي  
التحقيق من مكتبه ليجده على تلك الحالة من الهيجان  
والثورة.

## الفصل الثالث

صدرت صحف اليوم الموالي حاملة في صفحاتها الأولى خبر اعتقال مجموعة من الأشخاص بتهمة الانتماء إلى تنظيم سري كان يخطط لعمليات وصفت بالمشبوهة.. وأذاعت الإذاعات في نشراتها الاخبارية الخبر في مقدمة هذه النشرات.. تابع الناس في ذهول الخبر.. لأن الخبر كان صادما لم يكن أحد ينتظر أن تستفيق المدينة على خبر كهذا وأصبح الخبر حديث الناس في المقاهي. عصام المهندس فلاحي المعروف بدماثة أخلاقه وجديته وحماسه في العمل من بين الموقوفين في هذه القضية. أغلب أبناء المدينة يعرفونه.. منذ ان تخرج من الجامعة عين في خطته كمهندس فلاحي وكل الذين يقصدونه لا يجدون منه إلا

الدعم والمساعدة وقال قائل // مستحيل. كيف يكون عصام من بين المورطين لم تظهر عليه أبدا علامات المناهضة للنظام وما الذي يجعله مناهضا وهو في وضعية مهنية مريحة.. وقال آخر هو مهندس فلاحي ماذا يريد أكثر.. وزير أو رئيس دولة. أما شهاب هذا المعلم المتقاني في خدمته كيف يمكن أن نقبل أنه على صلة بتنظيم سري. لا يمكن القبول بهذا. أعتقد أن هناك خلط في الأسماء وتناهى إلى الجماعة صوت من الطاولة البعيدة نسبيا. إنكم تحكمون على الظواهر يا جماعة ما أدراكم بما كان يدور في خلده.. صحيح نحن نعرف شهاب منذ أن عين كمعلم بالمدرسة وقد درس العديد من أبنائنا ولكننا لا نعرف أسراره كاملة. ورفع أحد الحاضرين صوته يا جماعة يا جماعة مالنا نحن وهؤلاء.. هؤلاء شرذمة ظالة تريد أن تدبر المكائد

للدولة وتعكّر صفو النظام العام. فعالجه أحد الحاضرين  
في الطاولة المجاورة :

- اسكت أنت يا .. نحن نعرفك. لا فائدة.. نحن  
نعرفك جيدا.

فاستدار إليه في حركة والشرر يتطاير من عينيه  
وقد اقترب منه كثيرا :

- مادا تريد أن تقول يا .. تكلم أنا أعرفك أيضاً إليها  
الشيوعي.

- شيوعي... أفضل منك إليها الصباب.

- صباب ؟ تقولها.. أنا أشرف منك أنا على الأقل  
لا أتاجر بمبادئي إليها الأحمق أما أنت إليها الشيوعي  
المندس.

كان كل واحد من بين الحاضرين يريد أن يدللي  
بدلوه في المسألة ونسوا عبدالفتاح لم يتناول سيرته أحد.  
عبدالفتاح المثقف البوهيمي الذي يعيش بين الكتب والأوراق  
والأقلام، ذاك الذي قيل أنه حفظ منجد لاروس في صغره  
وحفظ المعلقات السبع والفية ابن مالك وكتاب كليلة ودمنة  
والبخلاء وكتب أخرى كثيرة. وكثيراً ما رأه الناس في  
ساعات خروجه إلى المدينة يمشي وهو يحدث نفسه ويقول  
أشياء غريبة لا يعلمها عامة الناس.

## الفصل الرابع

لا أحد صدق أن من بين الموقوفين في قضية الانتماء إلى التنظيم السري التي شاع خبرها بين الناس بعد أن نشرت الصحف أسماءهم وصورهم يوجد سامح ابن رئيس الشعبة الدستورية الذي طالما خطب في الناس.. لا يفرط زيارة أي وزير أو مسؤول كبير ليكون أول المتكلمين المشيدين بجهود الدولة والنظام في رعاية شؤون الناس والعناية بضعف الحال وليؤكد أن الدولة لا تدخر جهدا في سبيل تحقيق كل ما يسعد الناس.. فكيف يكون ابنه سامح الشاب الذي درس في الجامعة على نقيضه تماما.

قال أحد الحاضرين في مجموعة كانت تقرأ الخبر وتنتمل صور الموقوفين في الجريدة:

- أنا لا أصدق.. أنا أعرف سامح هو شاب مهذب ولطيف. صحيح هو منذ أن كان يدرس في الثانوي كانت له أفكار تختلف عن أفكار والده ولكن لا أعتقد أن يصل به الأمر إلى حد أن يكون معارضا وينتمي إلى تنظيم سري.

- أجابه فتحي وكان على مقربة منه : لا تحكم بالظواهر.. كل الشباب الذين ذهبوا إلى الجامعة تغيرت أفكارهم، لقد أرسلناهم ملائكة وعادوا إلينا شياطين.. لقد اختلطوا في الجامعة بشباب من جهات أخرى يحملون أفكارا قيل أنها هدامة.

وانبرى ثالث - أنكم تتحدثون عن أشياء لا تفهمونها جيدا.. أنا عندي معلومات أن سامح منذ أن التحق بالجامعة استهواه تيارات طلابية كانت تحمل أفكارا مناوئة للنظام وقيل أنه كان يتزدد في البداية خلسة على اجتماعات هذه المجموعات ثم أصبح بعد مدة من العناصر

الفاعلة.. وساعدته قدرته الخطابية على ذلك.. قيل أنه كان يخطب في الجماعة فيقنعهم بكلامه وله خطب مؤثرة لأنه كان يقرأ الكثير من الكتب الوفدة والتي تحمل أفكارا شيوعية وتقدمية.

قال طاهر في الطاولة المقابلة : سامح هذا شاب خطير. منذ ن كان يدرس في الثانوي كان يحفظ عن ظهر قلب خطب عبد الناصر.. وكان يرى فيه زعيم الأمة العربية الأوحد. كان يقول في خطبه إن الأمة العربية فقدت بوفاته زعيم القومية العربية، وملهم الشباب الأوحد. كان يريد أن يؤثر في أصدقائه وزملائه. ويريدهم أن يكونوا أيضا من أنصار التيار الناصري وهو ككل الشباب من جيله كان معجبا بخطب جمال عبد الناصر وتوجهه القومي. وقد ضبطت عنده العديد من الكتب التي تتحدث عن التيار العربي القومي فعالجه سعيد ... مهلاك يا رجل

أنت تعرف كل هذا عن سامح، كيف عرفت كل هذا ؟ هذه مجرد أقاويل لا سند لها. كيف يكون سامح وهو ابن رئيس الشعبة الدستورية حاملا لهذه الأفكار الهدامة.. نحن نعرف سامح منذ أن كان صغيرا فقد كان مغرما بالمطالعة على عكس الكثيرين من أبنائنا.. وعندما كان في التعليم الثانوي وقد درس مع أبنائنا كان أكثرهم تفوقا.. وكان يكتب الشعر ..

قال طاهر لو أن والده الذي طالما أتعينا بخطبه العنتيرية والتي تدعو إلى الانضباط الحزبي صرف وقته في رعاية ابنه لكان أفضل له ولنا.. ماذا يقول الآن وصورة ابنه سامح تتتصدر مجموعة الموقوفين بتهمة الانتماء إلى تنظيم سري يخطط للقيام بأعمال ضد الدولة وتوجهاتها ؟

## الفصل الخامس

... كانت الجامعة تغلي كالمرجل.. وكل التيارات السياسية متواجدة.. وكل تيار يريد أن يفرض نفسه وتكون له الكلمة العليا.. لم تكن الجامعة في معزل عما يجري خارج أسوارها.. فالبلاد كانت تعيش وضعاً صعباً نتيجة تأزم الأوضاع السياسية.. وانسداد الأفاق..

كان سامح القادم من أعمق مدينة في الجنوب التونسي حديث الالتحاق بالجامعة.. بعد أن نجح بتفوق في امتحان شهادة البكالوريا.. وتم توجيهه إلى كلية الحقوق لطالما حلم والده بأن يرى في حياته ابنه سامح وقد تخرج محامياً أو قاضياً.. كان في مجالسه يتحدث عن تفوق ابنه سامح في الدراسة وإعجاب أسانته به إلى حد كان يزعج

من يستمعون إليه فهو يبالغ كثيرا في الحديث عن ابنه. كان سامح طالبا جديدا في كلية الحقوق وسعیدا بتوجيهه إلى هذه الكلية ليحقق حلم والده وأيضا حلمه الشخصي. فقد كان في دراسته الثانوية يحلم بأن يكون قاضيا أو محاميا أو صحفيا ولكنه كان يغلب رغبته في أن يكون محاميا بعد التخرج من الجامعة على رغباته الأخرى.

يذكر أن أستاذ الفلسفة كان كثيرا ما امتدح كتاباته وكان يقول له أنك تملك موهبة قل وجودها بين أقرانك في التحليل والكتابة بالعربية الصحيحة وعدم تعوييم الموضوع الذي تكتبه.

في الجامعة وجد سامح نفسه غريبا نوعا ما على أجواء الجامعة خاصة بعد مضي فترة على التحاقه بكلية الحقوق التي كانت تضم خيرة أبناء المجتمع وكان يحسد نفسه على وجوده بين هؤلاء الذين كان بعضهم يأتي إلى

الكلية بسيارته الخاصة. أكيد أن هؤلاء ينحدرون من عائلات ميسورة وثرية وإلا ما ملك الواحد منهم وهو ما زال طالبا سيارته الخاصة مع ما كان يظهر عليهم من علامات اليسر مثل تدخين السجائر الفاخرة واللباس الأنثيق بينما هو كان يعيش على المنحة الجامعية.. وبعد مضي مدة بدا سامح هذا الفتى الخجول يتخلص من خجله خاصة بعد أن تعرف على زميلته إيمان التي تحاول إدماجه في الأوساط الجامعية وازدادت إعجابا به لما استمعت إليه لأول مرة بينما كانا لوحديهما في مقهى الكلية يقرأا عليها بعض قصائده.

قالت له إيمان : أنت شاعر إذن.

قال لها في استحياء : لا.. لا هي مجرد محاولات بدأتها عندما كنت في المعهد و كنت انشر بعض هذه القصائد في المجلة الحائطية.

اقتربت إيمان منه كثيرا ثم طبعت على خده قبلة  
فاجأت سامح. كاد سامح أن ينهار. فلم يكن ينتظر من  
إيمان الطالبة التي تبدو عليها علامة الثراء من خلال  
لباسها الأنيق و سيارتها الخاصة الصغيرة ذات اللون  
الأحمر أن تطبع على خده تلك القبلة الساخنة وأن تبدي  
إعجابها بشعره.

بقي مسمرا في مكانه وإيمان تنظر إليه وقد انفتحت  
شفتها على ابتسامة لم ير أجمل منها في حياته ثم أخذته  
من يده لتنقذه من ذهوله وسارا معا إلى حيث ركنت سيارتها  
و قالت له :

- اصعد

- اصعد ؟

نعم اركب.. مالك متواترا.. سأخذك إلى حيث  
تتخلص من ارتباكك. ما إن جلس سامح على الكرسي  
حتى أدارت إيمان المفتاح وانطلقت بهما سيارتها.. ثم  
امتدت يدها إلى مسجل السيارة ووضعت شريطا خرج منه  
صوت يجده كثيرا سامح ولطالما استمع إليه في خلواته في  
بيتهم، إنه صوت الشيخ إمام يتغنى بأشعار أحمد فؤاد نجم.

- يا الله وبدون استئذان.. شرع يردد مع الشيخ إمام  
أغانيه في انشاء غريب وقال لصديقه إيمان : أنت أيضا  
من عشاق الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم. أومأت برأسها  
ضاحكة وواصلت قيادة سيارتها التي كانت أشبه بغزاله  
شاردة في الصحراء..

## الفصل السادس

كان الفصل بداية شتاء.. وكان الطقس باردا..  
سنتها نزلت أمطار غزيرة على البلاد في الشمال والوسط  
والجنوب وفاضت الأودية وامتلأت السدود فوق طاقتها من  
المياه التي تجمعت من الأودية والمجاري والسيول..  
وجاءت الأخبار أن المياه التي نزلت بغزارة في قمودة  
وقصبة وفي عدة مدن من الشمال قد غمرت العديد من  
المنازل واقتلت الأشجار.

فاض وادي الفكة وفاض وادي بياش وعزلت مدينة  
قصبة كما عزلت مدينة قمودة. ولكن الوطأة كانت أشد في  
مدينة قصبة. لقد عزل فيضان وادي بياش المدينة..  
وانقطع عنها المدد.. كانت مياه وادي بياش الهدارة ترعب

السكان.. واستبد الخوف بالأهالي. لا بد أن كارثة قادمة..  
كان فاكر سنتها في سنته الأولى من التعليم الثانوي.. ما  
زالت صور الأحداث ملتصقة بذاكرته إلى اليوم.. وهل  
ينسى.. مشهد الجث المسجية في مستشفى الحسين  
بوزيان.. وقد غطيت براءء أبيض بعد أن جرفتهم المياه  
عندما غامر سائق الشاحنة بشق مياه وادي بياش الهادرة..  
ولكن في منتصف المسافة قلت المياه الشاحنة التي كانت  
تقل عددا من زملاء فاكر الذين كانوا يدرسون معه في  
نفس المعهد ومنهم من كان زميله في القسم..

جرفت مياه وادي الفكة الشاحنة وجرفت معها  
التلاميذ.. وذهبت بهم بعيدا.. بعيدا.. هاجت قصبة  
وماجت.. لقد قصرت السلطة في القيام بواجبها.. وتسببت  
في ما لحق بالمدينة من كارثة أكثر من خمسة وعشرين  
תלמידا في عمر الزهور.. تجرفهم المياه وترمي بجثثهم في

أطراف الوادي المترامية على مسافات طويلة. جاء الخبر الحزين في تلك الليلة.. لقد جرفت مياه وادي بياش أبناء القصر. آه يا للوعة المدينة ويا للوعة الأهالي، نحيب وعويل في كل دار ومامات هنا وهناك قفصة المدينة المنكوبة، لولا إهمال السلطة وتهاونها في القيام بالواجب ما جرفت المياه خمسة وعشرين تلميذا. إنها الكارثة.

كانت الأنباء الواردة من مدينة قمودة ومن مدينة المكناسي لا تقل وطأة عن الأخبار القادمة من جهات الشمال. مدينة المكناسي التي يطوقها وادي اللبن الذي يسمع هدير مياهه من مسافات بعيدة، لقد فاض وادي الفكة وهاجمت المياه المدينة وغمرت المنازل.. وتشبت الناس بما كانوا يملكونه من ألواح وخشب للنجاة من الهلاك والموت المحقق.. عائلات بأكملها جرفتها المياه وذهبت بها إلى

حيث لا مكان وإلى اليوم لا يعرف الناس أين ذهبت المياه  
بتلك الجثث التي جرفتها.

الوطأة كانت شديدة والكارثة كانت ثقيلة في قصة  
وقدمة والمكناسي، يا لهول ما رأى فاكر وما اختزنت  
ذاكرته. قيل يومها أن من أصدر التعليمات بشق مياه  
الوادي الهدارة هو المسؤول الأول عن الولاية.. وقيل أنه تم  
تهريبه ليلا بعد أن وصلت أخبار الكارثة إلى السلط العليا  
فخافوا عليه من انتقام الأهالي والعائلات التي فقدت أبناءها  
فقاموا بتهريبه.. لا تزال مشاهد الجثث المسجية في  
مستشفى الحسين بوزيان تورق ذاكرة فاكر. بعد يومين أو  
ثلاثة عندما هدأت مياه الوادي انطلقت فرق البحث عن  
الجثث وتم انتشال العديد منها وتم تجميعها كلها في  
مستشفى الحسين بوزيان في موكب حزين، ونظم الأهالي  
جنازة جماعية لأبنائهم الذين جرفتهم المياه.. بقيت المدينة

حزينة لأشهر عديدة ولم يزر أي مسؤول المدينة بعد تلك الكارثة خشية من انتقام الأهالي وما زالت المدينة غاضبة إلى اليوم ..

## الفصل السابع

كانت الفضاءات الجامعية في تلك الفترة من بداية السبعينات هي المتنفس الوحيد لجيل كامل من الطلبة.. للتعبير عن أرائهم وأفكارهم.. وكانت عين النظام ترصد هذه التحركات.. ولكن الطلبة لم يكن يخففهم ما كانوا يتعرضون له من ملاحقات.. لم يجد عصام الطالب القادم من إحدى ولايات الوسط والذي يدرس بالمدرسة العليا للفلاحه صعوبة في الاندماج في هذه الأجواء الجامعية.. التي كانت مشحونة إلى حد كبير..

عصام منذ أن كان تلميذاً بالمعهد الثانوي يحفظ الكثير من خطب الزعيم الشيوعي لينين.. وكان يعتبره زعيم الفكر الاشتراكي الذي نظر له كارل ماركس بلا منازع حتى أنه عوقب بالطرد لمدة أسبوع من المعهد الذي كان يدرس

به لأن القيم العام الخارجي ضبطه بنفسه في جانب من ساحة المعهد يشيد بخصال الرئيس جمال عبدالناصر الاشتراكية أمام عدد من زملائه.. فلم يغفر لعصام أن يتحول إلى تلميذ مارق كما وصفه في تقريره الذي رفعه إلى المدير وليتهم بمقتضاه طرد عصام من المعهد لمدة أسبوع والتنبيه عليه وعلى والده.. وكأنه ارتكب جرما خطيرا..

لم تكن هذه الحادثة هي الوحيدة في تاريخ عصام.. فقد تمت دعوته إلى مركز الأمن في إحدى المناسبات لأنه قرأ في نادي هواة الأدب قصة قصيرة أمام زملائه بعنوان "الثور الذي بلغ عتيا".

يومها طلب من عصام أن يقول لرجال الأمن إلى ماذا كان يرمي بالثور الذي بلغ عتيا.. لم يتقطن عصام عندما كان يقرأ القصة إلى أن هناك أعينا تراقبه وتستمع إلى قصته التي يبدو أنه يرمي من خلالها إلى رئيس البلاد ووصفه في قصته بالثور الذي بلغ عتيا.

وكيف يتجرأ هذا الفتى الريفي القادم من أعماق  
قرية نائية على وصف رئيس البلاد بالثور؟ وتم إيقاف  
عصام لمدة ثلاثة أيام على ذمة التحقيق وكان في كل مرة  
يطلب منه أن يقول لهم من هو الثور الذي بلغ عتبنا.

أما هو فكان يقول لهم أنه استوحى أحداث قصته  
من حياة ثور يملكه أحد مربى الأبقار في قريتهم.. اشتراه  
صاحبه منذ سنوات وحافظ عليه لأنه في نظره فحل لا  
مثيل له ورغم أن الثور بدا يهرم فإن صاحبه لم يفرط فيه  
لأنه في نظره من صنف الثيران النادرة..

أما رجل الأمن الذي كان يستطعه فلم يصدق هذه  
الحكاية.. وعاجله في مرة أو مرتين لم يعد يذكر عصان  
بصفعة لم ير مثلها في حياته :

- اسمع يا ولد.. نحن نعرفك.. منذ أن ضبطنا  
عندك مجموعة من الكتب التي كانت تحوي خطبا لجمال

عبد الناصر وشوفي القوتلي.. اسمع يا ولد لا تتعبني..

من هو الثور الذي تحدث عنه في قصتك؟

ويصر عصام على أن الثور الذي يقصد هو الثور

الذي يعرفه. ولم يتم إطلاق سراح عصام إلا بعد أن تدخل أحد المسؤولين المحليين وطلب من عصام أن يكتب تعهداً بالإقلاع نهائياً عن ممارسة أي نشاط مشبوه. استحضر عصام هذه الأحداث التي ولدت في نفسه حب التمرد والرغبة في الثورة على ما كان يعتبره استمرار ما لا يجب استمراره...

أوقفت إيمان سيارتها وكان بجانبها سامح زميلها في كلية الحقوق أمام أول مقهى اعترضهما.. بعد أن بدأ المطر ينزل بكثافة.

قالت له : - تعال نشرب قهوة.

خَيْر سامح البقاء في السيارة على النزول مع إيمان والجلوس في المقهى. هو لا يحب الجلوس في المقاهي منذ

ان كان تلميذا ولكن إيمان أصرت على النزول. قالت له إبني أشعر برغبة كبيرة في الجلوس هنا في هذا المقهى البعيد نسبيا عن ضوضاء المدينة..

قالت له إبني كلما شعرت بالضجر آتي إلى هذا المقهى وأجلس لوحدي وأستمتع بشرب قهوة ساخنة وتدخين سيجارة فاخرة.

إيمان ابنة أحد المسؤولين الكبار في إحدى الوزارات. ويظهر ذلك من خلال الملابس التي كانت ترتديها والتي كانت تغيرها كل يوم ومن خلال السجائر الفاخرة التي كانت تدخنها فضلا عن امتلاكها لسيارة خاصة.

أخذت إيمان سامح من يده قاطعة أمامه كل تردد ودخلما معا إلى المقهى على وقع رخات المطر.

## الفصل الثامن

قرر الطلبة مقاطعة الدروس.. وأصبحت ساحة الكلية تعج بحلقات الطلبة الغاضبين.. في كل حلقة كان يعلو صوت خطيب يخطب في زملائه الطلبة.. هذه مجموعة اليساريين وهذه مجموعة القوميين وهذه مجموعة الاسلاميين.. كانت الأجواء مشحونة إلى حد كبير..

وقرر الطلبة النزول إلى الشارع في مسيرة احتجاجية على زيارة أحد وزراء الدول العظمى.

- كيف تسمح الدولة لهذا الوزير بزيارة البلاد وببلاده مورطة في الاعتداء على دولة شقيقة ؟

خطب جمال في زملائه الطلبة.. مستعينا بما قرأه في الكتب السياسية من تحاليل وخطب لزعماء سياسيين

وكانت كلماته تتفذ إلى وجدان زملائه فيتفاعلون معها بالهتاف وترديد الشعارات الحماسية.

- إن هذا اليوم يومكم أيها الأحرار.. لا يمكن السماح باستباحة الوطن.. يجب أن نتصدى لمحاولات ابتلاع الوطن والهيمنة الأجنبية.

كان جمال يدرك جيدا المصير الذي ينتظره.. هو لا يأبه بهذا.. قرر الطلبة مهاجمة المركز الثقافي التابع لأحد الدول الكبرى.

سيتصدى البوليس لا محالة وسيهاجم الطلبة الغاضبين وسيستعمل كل الأسلحة لصدتهم عن الوصول إلى مبتغاهم، هيبة الدولة يجب أن تكون فوق كل اعتبار.

جمال هذا الشاب القادم من إحدى ولايات الجنوب.. يمتلك موهبة في الخطابة تساعدة على التأثير في زملائه.

هو ابن أحد اليوسفيين.. الذين حاكمهم النظام بتهمة الانتماء إلى الأمانة العامة. وحُوكم بخمسة سنوات سجن. كان والده من أنصار الزعيم صالح بن يوسف.. وكان من أشد المتشعّبين له عندما تمت محاكمة والده وحُوكم بخمس سنوات سجن ومثلها سنوات نفي إلى ولاية أخرى كان عمر جمال لا يتجاوز الخمس سنين. يتذكر جيداً محاكمة والده التي كانت تذاع في الإذاعة إلى جانب من قبض عليهم من أنصار التيار اليوسفي وقرر النظام محاكمتهم.. كانت الأحكام قاسية، جمال كان في تلك السنة في الخامسة من عمره.. قيل له أن والده ينتمي إلى تيار معارض للنظام ويريد النظام أن يعاقبهم على هذا الانتماء ولطالما سمع جمال عندما كبر حكايات عن الخلاف اليوسفي البورقيبي.. لم ير جمال والده إلا مرة واحدة بعد أن خرج من السجن. فقد كان مطالباً بقضاء فترة النفي بعد خروجه

من السجن في إحدى ولايات الشمال.. إلا أن القدر لم يمهل والده طويلا.. فقد توفي والده بعد مدة قصيرة من خروجه من السجن.

شب جمال على رغبة جامحة تسكن قلبه في الانتقام من الذي حرمه من عطف والده كل الأطفال الآخرين. وكان يتساءل ماذا لو سمح بوجود تيارين سياسيين في البلاد.. ألا يكون ذلك أفضل للوطن والشعب.. وتكون هناك حرية في الانتماء السياسي..

كانت أسئلة كثيرة تجوب بخاطر جمال كلما تذكر أن والده قد دفع ضريبة حريته في اختياره السياسي. أليس من حقه أن ينتمي إلى تيار سياسي يختلف عن التيار السياسي القائم في البلاد ؟

في الجامعة تعرف جمال على لبنى الطالبة القادمة  
من إحدى ولايات الوطن القبلي وكانت معجبة بفصاحته  
وشجاعته في التعبير عن أرائه وقدرته الخطابية. لبنى ابنة  
أحد فلاحي الوطن القبلي.. والدها فلاح كبير يملك عقارات  
وأراضي وحقول مزروعة كلها من مختلف أصناف  
البرتقال..

تعرفت لبنى على جمال من أول يوم في الجامعة..  
فقد كان جمال شاباً وسيماً أسود الشعر عيناه حضروان  
ووجهه قمحى اللون. اقتربت لبنى من جمال وكانت هي  
الأخرى على غاية من الجمال لكل بنات الوطن القبلي.

في مقهى قريب من الكلية جمعهما أول لقاء..  
وازدادت لبنى إعجابها بجمال لما عرفت أنه ابن مناضل  
سياسي حكم لأجل انتماءاته اليوسفية. ومات في سبيل  
مبادئه. أحببت لبنى جمال.. هي لا تعرف ما الذي جذبها

إليه. كان يمكن أن تختار صديقاً غيره. ولكن إحساساً داخلياً لا تقدر على تفسيره كان يقول لها في صمت.. هذا هو فارسك الذي تحلمين به.

كانت لبني لا تفارق جمالاً أبداً وتحضر كل الحلقات التي كان يخطب فيها في الطلبة. كانت الزغاريد التي تتبعت من الحلقة هي زغاريدها.. وأمام تعطل الدروس بالكلية قبض على مجموعة من الطلبة كان من بينهم جمال ولبني وآخرين. أخذوهم إلى عميد الكلية.. وكان رجلاً صعباً طويلاً القامة قوي الجثة أصلع الرأس.. كان عدد الطلبة الذين أتى بهم الأمن الجامعي إلى مكتب عميد الكلية لا يتجاوز العشرين طالباً بين ذكور وإناث.

ما إن دخل الطلبة وكانت علامات الغضب بادية على العميد حتى بادرهم بالقول: أنتم هنا للدراسة وليس للثورة.. اسمع أنت يا فلان موجهاً الخطاب إلى جمال..

نحن نتابع كل حركاتك.. اسمع لقد تحملناك كثيرا.. أنت هنا عنصر تخريب. حاول جمال مقاطعة كلام العميد. إلا أن العميد واصل كلامه غير آبه برغبة جمال في الكلام.

- لن أسمح بعد اليوم بالعبث.. أتيتم للدراسة.. من أراد الثورة.. الثورة مكانها ليس هنا.. لن أسمح بعد اليوم بأن تحول الكلية إلى فضاء للمزايدات السياسية. ثم التفت إلى لبنى :

- اسمعي أنت أيتها الطالبة.. أعرف أنك تشجعين أصحابك بالزغاريد والهتافات. أعرف عنك كل شيء. بعد اليوم لن أسمح بهذا العبث. لا مناشير ولا اجتماعات.. هل سمعتم. عندي تعليمات بأن أسلمكم إلى الأمن..، ولكن هذه المرة لن أفعل.. لن تكون مضرتكم على يدي..

## الفصل التاسع

من بين كل زملائه.. كان شهاب طالباً منكفاً على نفسه.. قليل الاختلاط بزملائه.. كان فخوراً بانتمائه إلى شعبة علم الاجتماع التي تم توجيهه إليها بعد نجاحه في البكالوريا.. لم يكن منجذباً كبقية زملائه الطلبة إلى ما كان يدور في الجامعة من حراك طلابي سياسي.. كل همه كان أن ينجح في دراسته ويعود إلى مسقط رأسه ليسعد قلب والده وقلب والدته والجيران.. والده عامل يومي.. ولو لا أن رئيس الشعبة يقدر ظروفه فكان يسجله باستمرار في الحضيرية الموسمية ما كان له أن يقدر على أن يوفر متطلبات الدراسة لشهاب ولبقية إخوته الآخرين..

عندما نجح شهاب في الباكلوريا أقام له والده احتفالاً. ودعا الأهل والجيران لمشاركته في نجاح ابنه.. ويومها اشتري شاه سمينة وأولم للأهل والجيران وكانت قصاع الكسكسي باللحم حاضرة.. حيث أكل الجميع وكانت ليلة من أحلى ليالي القرية..

قدم شهاب إلى العاصمة لأول مرة وسجل في كلية علم الاجتماع.. هو يحب هذا الاختصاص وخلال الصائفة التي تلت نجاحه أمضى أياماً وليلات يقرأ مقدمة ابن خلدون واضع علم الاجتماع فازداد فخره بأن تم توجيهه إلى هذه الشعبة مع ما كان يتمتع به من موهبة في الكتابة الأدبية... فعندما كان في المعهد الثانوي كثيراً ما نشر بعض أقصاصيه وأشعاره في مجلة المعهد.. وكان أساتذته يشجعونه على مواصلة الكتابة وصقل موهبته الأدبية بمزيد الإقبال على القراءة والمطالعة..

هو معجب بالمسعودي رغم ما يعتري أسلوبه في الكتابة من صعوبة في الفهم.. قرأ كتاب السد وأعجب به ويعجبه صراع غيلان من أجل البقاء والاستمرار كما يعجبه تماهي ميمونة.. وبقية شخصيات الرواية التي أبدع فيها المسعودي.. ويردد في إعجاب بعض مقاطع الرواية وتعجبه شخصية الكائن الخرافي الذي استتبطه.

أمضى شهاب عامه في الدراسة لم يكن يأبه بما يدور خارج أسوار الجامعة، كان يقول في قرارة نفسه : - أبناء الفقراء لم يولدوا للسياسة أنا هنا للدراسة والنجاح.. السياسة لأولاد الأغنياء والأثرياء.

تعرف بعد مضي فترة من الدراسة على زميلته سحر التي كانت تدرس معه في نفس السنة.. هي ابنة أحدى ولايات الشمال وكانت على قدر كبير من الجمال، أغلب

زملائها يتمنون التقاطة منها ولكنها اختارت.. شهاب.. كانا  
يمضيان أوقات فراغهما معاً ويراجعان معاً في مكتبة الكلية  
ويخرجان معاً في أوقات الراحة.

سحر هي الأخرى محبة للأدب والفن ولأول مرة  
سمع شهاب من سحر أغان كانت ترددتها لما يكونان معاً.  
قالت له هذه الأغاني هي من نوع الأغاني الملزمة.. كانت  
تردد أمامه أغاني يطرب لها شهاب وتسهويه كلماتها  
ومعانيها مثل الأغاني التي كانت على لسان أغلب شباب  
تلك المرحلة والتي كان يؤديها الشيخ إمام وفرقة البحث  
الموسيقي بقباس // هيلة هيلة يا مطر // أغنية يحبها كثيرا  
شهاب. كانت هذه الأغاني تملأ كيانه.. وكثيراً ما طلب من  
سحر أن تغنيها له لما يكونان في فسحة أو نزهة..

وسحر تتمتع بصوت جميل.. وتحفظ الكثير من  
أغاني تلك المرحلة.. هو يدرك أن تلك الأغاني الملزمة

تحولت إلى أناشيد ثورية عند أغلب زملائه الطلبة.. أغان كان النظام يمنع بثها في الإذاعات ولكن الشباب كان يتابعها عبر المنتديات الثقافية الطلابية. وبدأت هذه الأغاني تستهوي شهاب وتحرك في داخله إحساسا غريبا بدا يشعر به لأول مرة.. إحساس غذته لديه زميلته سحر..

الوضع العام بالبلاد في تلك السنة شديد التأزم.. أحداث واضطرابات في عديد الجهات الداخلية وفي الكليات أيضا. وذات مرة داهم البوليس اجتماعا طلابيا في فضاء الكلية.. وحاصر كل الطلبة الحاضرين.. وأراد إلقاء القبض عليهم واقتادهم إلى مراكز الأمن للتحقيق معهم.. تفرق الطلبة في كل اتجاه حتى لا يلقي البوليس عليهم القبض.. فيهم من التحق بالقاعات وفيهم من اختبأ في بعض الأركان وفيهم من جرى وقفز أسوار الكلية.

يذكر شهاب الذي جرى مع بقية الطلبة هارباً أن زميلاته سحر كانت وراءه وأنها قفزت بصعوبة السور العالي وكادت تصاب بكسر في ساقها لأنها ارتطمت بكبس من الحجارة عندما قفزت السور وتمزق بنطلونها الجديد وقميصها.. حملها شهاب فوق ظهره عندما عجزت هي عن مواصلة السير ...

## الفصل العاشر

ركنت إيمان سيارتها.. قرب شارع جون جوراس..  
ونزلت من سيارتها ومعها زميلها سامح.. الطقس جميل مع  
نسمة خفيفة تهب على الوجوه بعد نزول المطر.. قالت  
إيمان :

- سآخذك إلى مكتبة الكتاب.. أعرف أنك مغرم  
بالمطالعة وتحب الاطلاع على آخر الاصدارات.

- قال سامح :  
- اختيار جيد.. أنت تعرفين أنني أُعشق الكتب  
وحضور الأنشطة الثقافية ازدانت واجهة مكتبة الكتاب  
بآخر العناوين.. وكان بعض المارة يتوقفون لتأمل ما حوتة  
الواجهة من عناوين جديدة. من كتب ومجلدات

وموسوعات. مكتبة الكتاب هي أشهر المكتبات في العاصمة وهي التي تأتي باخر ما صدر من كتب لعرضها في تونس..

دلفت إيمان ووراءها سامح إلى داخل المكتبة التي كانت شبه ملأنة بالرواد من الرجال والنساء والشباب والأطفال. اعترضهما أحد العاملين في المكتبة مرحبا.. فقد اعتادت إيمان أن تأتي إلى هذه المكتبة باستمرار لتشتري ما يرود لها من كتب.. أما سامح فإنه يزورها لأول مرة. كان يجول ببصره في أروقة المكتبة وأجنحتها متأملاً ما حوتة من كتب ومجلendas بمختلف اللغات.

كم تمنى سامح في لحظة تأمله أن يكون صاحب إحدى الكتب المعروضة هنا في هذا الفضاء السحري لا شيء يعلو على مكانة الكتاب. الكتب هنا على كل لون

وشكل. الترجم بجانب الروايات بجانب الدواوين الشعرية  
بجانب الموسوعات.

- يا الله ما هذا العالم الجميل .

ابعدت إيمان قليلا عن سامح.. تركته في ذهوله..

لم تشا أن تقطع عليه لحظة سعادته بتأمل الكتب التي  
يحبها ويعشقها. تمنى لو كان يملك مالا كثيرا ليشتري ما  
يحب من الكتب. توقف أمام كتاب كان بسيطا في إخراجه  
ولكن عنوان الكتاب لفت انتباهه "أقسمت على انتصار  
الشمس" فتحه فإذا هو ديوان شعر.. لشاعر اسمه مختار  
اللغماني لطالما سمع بهذا الاسم.. كانت أشعاره تلقى في  
الجامعة من قبل عدد من زملائه الطلبة. وقيل أن هذا  
الشاعر توفي صغيرا وكان سابقا لعصره.. أشعاره ثورية  
يرددها الشباب ويحولونها إلى أناشيد. أقسمت على انتصار  
الشمس.. توقف طويلا عند العنوان.. كان الشاعر من

خلال هذا العنوان يقول أنه لا بد للشمس أن تنتصر تثير  
الدروب وتضيء الكون وتدفع السحب إلى التراجع.

أتمت إيمان جولتها في أجححة المكتبة وسامح لا  
يزال واقفا متسمرا وبيده الديوان الشعري الصغير... اشتراطت  
إيمان كتابين وعادت لتجد صديقها في نفس المكان.

قالت له :

- ماذا... ما الذي أعجبك ؟

- هذا الديوان شدني عنوانه.

- وما هو ؟

- أقسمت على انتصار الشمس.

أدركت إيمان أن عنوان الديوان وجد هو في نفس  
سامح. قالت له :

- هل ستقتنيه ؟

قال لها :

- وهل عندك شك .. ولكن هل تعرفين الشاعر ؟

ردت إيمان :

- نعم سمعت عنه اسمه مختار اللغماني .. ولكنه

توفي صغيرا.

- يا لعبث الأقدار .. وأنت ماذا اشتريت ؟ كان

سامح يريد أن يعرف ماذا اقتنت إيمان من جديد الكتب.

أجبت إيمان :

- أنا تستهويوني الرواية .. لا أميل إلى الشعر كثيرا ..

وأضافت أحب مطالعة الروايات المكتوبة باللغة الفرنسية

وأحب من الروائيين العرب نجيب محفوظ وإحسان عبد

القدوس .. ومن التونسيين يعجبني البشير خريف .. لقد قرأت

روايته الدقلة في عراجينها، إنها رواية ممتازة كما يعجبني  
مصطففي الفارسي في روايته المندرج. ولم تمهل سامح  
ليتكلم. وأخذته من يده وقالت تعال ندفع ثمن ما اشترينا من  
كتب.. لقد مر الوقت سريعا هنا في المكتبة.

## الفصل الحادي عشر

بدا النهج الضيق الذي يربط بين ساحة القصبة وبطحاء باب الجزيرة والذي يقسم المدينة العتيقة مزدحماً بالمارة وأغلبهم من السواح الذين كانت تستوقفهم الدكاين على جانبي النهج تعرض نماذج مختلفة من الصناعات التقليدية والأواني النحاسية.. في بداية النهج من ناحية القصبة بدا عدد من رواد المطعم يأخذون أماكنهم لتناول وجبة الغداء..

هنا في هذا المطعم.. تعرضك رائحة الأكلات المتنوعة ما إن تقترب منه.. رائحة أكلات الكسكسي والمقرونة والسمك المشوي ولحم الدجاج المشوي وأنواع أخرى من الأكلات الشهية.

ما أن تدلّف إلى هذا النهج من ناحية القصبة حتى  
تعترضك روائح البخور وأنواع العطورات المختلفة.. وفي  
مدخل النهج يقف جامع الزيتونة المعمور شامخا.. خرج  
جمال من مكتب عميد الكلية ومعه لبني.. قال لها :

- أحتاج إلى فسحة في أزقة المدينة العتيقة.. هناك  
وأنا أتجول أشعر بالراحة وتعود إلى الطمأنينة ويخفت  
توترى..

عبر جمال ولبني ساحة القصبة حيث انتصب  
بنيات عديد الوزارات بحرسها رجال الأمن ومن هناك دلفا  
إلى نهج جامع الزيتونة عبر مستشفى عزيزة عثمانة.. كان  
هناك عدد من المرضى القادمين من عدد من ولايات  
الشمال الغربي بساحة المستشفى الخارجية.

قالت لبني مخاطبة جمال :

- لماذا رکز العمید كل كلامه عليك.. ألا يوجد  
زملاء آخرون يتحركون ؟

قال جمال في زهو :

- لكل من اسمه نصيب.

فهمت لبني إشارة زميلها جمال وازدادت التصاقا به.

- يا سيدى.. نحن هنا.

لقد حكت لي والدتي أن والدي كان معجا جدا  
بجمال عبد الناصر.. وكان يعتبره زعيم العروبة الأوحد.  
ولذلك أسماني جمال.. كان يحب أن يبقى اسم جمال دائم  
التردد في البيت.

قالت لبني :

- أنت محظوظ.. لأنك تحمل اسم زعيم عربي  
كبير.

اقترب جمال ولبني من جامع الزيتونة.. توقف  
جمال وكأنه يكتشف المكان لأول مرة. ثم قال مخاطبا  
زمياته لبني :

- هل تعرفين أن والدي درس هنا.. هل تعرفين أن  
سواري هذا الجامع تشهد بأن والدي كان هنا.. طالبا من  
طلاب العلم في هذا المعلم.. وتمادي جمال في الكلام جاء  
والدي من قريتنا البعيدة ليتحقق بجامع الزيتونة المعمور  
ويدرس به بعد أن نال شهادة الأهلية في الفرع الزيتوني  
بقصة.. وهنا في هذا الجامع درس والدي على أيدي كبار  
المشائخ الطاهر بن عاشور والفالضل بن عاشور وال بشير  
العربي والشيخ النصيبي.

لبني كانت تسمع بانتباه إلى ما كان يرويه جمال  
عن والده، كان ذلك يحرك إحساسا داخليا لديها هو مزيج  
من الاعجاب والفتنة والشفقة. وسرحت لبني بتفكيرها بعيدا

بينما كان جمال يواصل سرد حكايات عن والده لم ينتبه  
ربما إلى أن لبني لم تعد تستمع إليه.

لبني ابنة أحد فلاحي الوطن القبلي، والدها فلاح  
ثري يملك مزارع كبيرة لأصناف مختلفة من البرتقال.

التقت جمال إلى لبني.. وقال لها :

- هنا في هذا المعلم درس والدي إلى أن تحصل  
على شهادة العالمية وكان يمكن أن يكون أستاذًا أو معلما  
ولكن والدي كان منتميا للتيار اليوسفي.. والدي كما حدثتاك  
كان منتميا لشقيق الزعيم صالح بن يوسف.. كان متشيئا له  
منذ أن انتمى إلى جماعة الطلبة الزيتونيين الذين يعارضون  
التوجه البورقيبي.

قالت لبني :

- إذن والدك كان معارضًا لسياسة الزعيم بورقيبة.

قال جمال :

- والدي كان يحمل في قرارة نفسه تقديرًا للزعيم بورقيبة. ولكنه كان يعارض سياسته وتوجهاته.

وأضاف جمال :

- والدي كان يعتبر مع شق صالح بن يوسف أن الاستقلال الداخلي خطوة إلى الوراء، أما بورقيبة فكان يعتبر الاستقلال الداخلي خطوة أولى في تحقيق الاستقلال التام.. وكانت هذه بداية الخلاف بينهما.

أرسل جمال تمهيدًا كبيرة ثم أخذ بيد صديقه لبني وأخذًا مكانهما في أول طاولة شاغرة بالمطعم القريب من جامع الزيتونة.. فقد كانا يحسان برغبة شديدة لتناول وجبة من السمك المشوي مع الكسكسي.

## الفصل الثاني عشر

توقف عبد الفتاح أمام مدخل الكوليزي الشهير بالعاصمة.. بعد ان قطع شارع الحبيب بورقيبةقادما من نهج ابن خلدون.. أمام مدخل الكوليزي توقف عبد الفتاح طويلا يتأمل المعلقة الدعائية لفيلم سنمائي تعرضه قاعة السينما الموجودة داخل مبني الكوليزي.. صورة المعلقة تظهر فيها ممثلة شبه عارية وبجانبها رجل كهل تبدو عليه علامات الوسامه وفي الجانب الآخر من المعلقة صورة لمجموعة من الشباب والفتيات في شبه حلقة رقص.. لم تستنهو المعلقة المعروضة كثيرا عبد الفتاح ولم تغوه بالدخول لمشاهدة الفيلم.. رغم أنه من عشاق السينما.. وكان ناشطا جدا في نادي السينما بدار الشباب.

في نادي السينما بدار الشباب شاهد عبدالفتاح العديد من الأفلام والأشرطة السينمائية التي كان يعرضها النادي كل مساء سبت وتحتم بحلقة نقاش.. أغلب هذه الأشرطة التي كانت تعرض في النادي أشرطة فرنسية تأتي من سفارة فرنسا وعديد السفارات الأخرى.. وكان رئيس النادي هو أستاذ عبد الفتاح في مادة الفرنسية.

هم عبد الفتاح بمواصلة جولته داخل مبني الكوليزي حيث المغازات تعرض أحدث ما جاءت به الموضة في صناعة الملابس للرجال والنساء.. وكذلك العديد من المحلات الأخرى وتوسط مبني الكوليزي مقهى شهير.. في هذا المقهى يجلس عدد من الوجهاء وهو يذكر أنه في هذا المقهى تعرف على الكاتب // سيد م // وهو في الأصل مذيع شهير، يقدم برامج ثقافية في الإذاعة في أشكال وأنماط غير مسبوقة.. لطالما استمع عبد الفتاح إلى هذه

البرامج الإذاعية.. مثل برنامج // ما تسمعه اليوم تقرأ  
غدا//.

كان ينتظر موعد إذاعة هذا البرنامج في العاشرة  
ليلا من كل يوم.. تعجبه طريقة صياغة النص وطريقة  
التقديم..

تعرف عبد الفتاح الطالب بكلية الآداب لأول مرة  
على معد و يقدم هذا البرنامج الذي كان يجلس يوميا في  
مقهى الكوليزي.. قدمه إليه أحد الأصدقاء وقال له أنه  
شاب معجب ببرامج الإذاعية وببرنامج "ما تسمعه اليوم  
تقرأ غدا" خصوصا.. ويومها أمضى عبد الفتاح وقتا رائعا  
مع هذا المثقف الكبير.. وعرف منه أنه شاعر أيضا وأنه  
من جيل أدبي ثائر على التقاليد المتعارفة في الكتابة وهو  
من جيل رافض للأنماط الأدبية السائدة جلسته دامت وقتا  
أطول. إلا أن الرجل اعتذر لأن له مواعيد تنتظره في

الإذاعة.. وقبل أن يغادر أهدى نسخة من كتاب له بعنوان //رافض والعشق معى// كانت أجمل هدية تلقاها عبدالفتاح. سيفاخر بهذه الهدية أمام زملائه الذين طالما أطلقوا عليه لقب عبدالفتاح قاموس.. لأنه عندما كان تلميذا في الثانوي حفظ منجد لاروس الصغير كاملا.. فأسماء زملاؤه عبدالفتاح قاموس.

قرر عبد الفتاح أن يواصل جولته في شارع الحبيب بورقيبة. خصوصا وقد كانت نسمات المساء تهب خفيفة وتغوي بالتجوال بعد أن بدأت عصافير أشجار شارع الحبيب بورقيبة تعود غلى أوكارها محدثة أصواتا أشبه بالسمfonيات التي يحبها عبد الفتاح.. كانت أمامه محطة الباساج الشهيرة حيث باعة الزهور على كل لون وشكل..

هو يحب كثيرا تأمل أصناف الورود والزهور المعروضة.. تذكره بالزهور التي كانت تنبت في سنوات

الخشب بأراضي البلاد. رؤية الزهور وقد تكدرت أشكالا  
وألوانا على جنبات هذه المحلات تتعشه وتبعث فيه شعورا  
لا يقدر على تفسيره.. لطالما أحب ديوان الشاعر الفرنسي  
بودلار بعنوان "زهور الشر". لقد أهداه هذا الديوان أستاذه  
في مادة الفرنسية سي لخضر القروي عندما تفوق في مادة  
الفرنسية في امتحان الثلاثي الثاني مع مجموعة من الكتب  
الأخرى أقبل عبد الفتاح على قراءتها.. هو لا يعرف من  
الهوايات عند الشباب غير هواية القراءة والمطالعة والذهاب  
إلى السينما.

كانت نسمات المساء تهب خفيفة.. وكان عبد  
الفتاح يواصل سيره في شارع الحبيب بورقيبة.. وعلى  
جانبي المشى الداخلي انتصبت كراسى من اللوح كان  
يجلس عليها بعض المارة لأخذ قسط من الراحة.

وبدت له بناية الأفريكا وقد توقف قبالتها شامخة..  
بطوابقها الممتالية هي أعلى بناية في العاصمة.. ود عبد  
الفتاح أن يلتج إلى داخل المقهى المفتوح على الشارع إلا أنه  
تذكرة أن ثمن القهوة هنا مرتفع وهو لا يملك هذا الثمن..  
كل ما يملكه وهو الطالب الذي يعيش على منحه  
الجامعية. ما يكفي لشرب قهوة في مقهى شعبي ولمجة  
عادية وثمن تذكرة الحافلة ليعود إلى المبيت الجامعي

## الفصل الثالث عشر

مشى شهاب في شارع الحبيب بورقيبة.. كانت نسمات الصباح تهب عليه فتنعش القلوب والنفوس.. العابرون يحثون الخطى باتجاه مراكز أعمالهم وبعضهم باتجاه مقاهي العاصمة حيث تعودوا الجلوس كل صباح لتناول القهوة وقراءة الصحف.. توقف شهاب عند مقهى تونس الشهير.. ولفت نظره وجود أعداد كبيرة من رواد المقهى كانوا موزعين.. كل مجموعة اختارت لنفسها مكانا مألفا في هذا المقهى.. بعض رواد هذا المقهى سفراء ووزراء وولاة سابقين و مدربين عاملين.. دفع الفضول شهاب إلى الدخول إلى المقهى فاعترضته راحة القهوة الممزوجة بدخان السجائر.. أخذ لنفسه مقعدا وجلس كبقية الرواد لم

تكن تنتقصه إلا جريدة يفتحها ويشرع في قراءتها.. من من  
أمامه بائع الصحف يحمل رزمة من الجرائد وهو ينادي  
"جريد.. جريد.. عمل. اكسيون. صبح.. لباس". طلب من  
البائع جريدة الصباح ودفع له ثمنها.. تأمل عناوين  
الصفحة الأولى.

- الرئيس يقرر تعيين وزير أول جديد ويكلفه  
بتشكيل الحكومة.

- الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في الأمم  
المتحدة. لا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي.

- الرئيس الأمريكي كلنتون انفراج باتجاه القضية  
الفلسطينية وقريبا يستقبل الرئيس عرفات في البيت  
الأبيض.

سرعان ما طوى شهاب الجريدة.. وتنى لو كانت عنده سيجارة.. فقد كان يشعر برغبة أكيدة في تدخين سيجارة.. هنا في هذا المقهى لا أحد يهتم بأحد.. كل مجموعة جالسة مع بعضها يتحدثون في أمور كثيرة.

نزل شهاب إلى العاصمة بحثاً عن عمل بعد أن رسب في السنة الأولى مرتين.. كلن في البداية معجباً بشعبية علم الاجتماع التي وجه لها.. ولكن سرعان ما يفقد حماسه ومحبته للمواد التي يدرسها.. ولم يستطع أن ينجح في عامه الأول وأعاد السنة الأولى مرتين وحرم من المنحة الجامعية فأصبح يشعر بأنه لم يعد قادراً علىمواصلة الدراسة وعليه أن يبحث عن عمل..

قادته رحلة البحث إلى إحدى الصحف اليومية.. توقف أمام بنايتها ثم دخل وطلب من عون الاستقبال أن يقابل المدير أو مساعدته.قرأ في المعلقة البلورية للصحيفة

أن الجريدة في حاجة إلى مصحح يتولى إصلاح الأخطاء  
المطبعية.

بعد محادثة قصيرة واختبار وافق مدير الصحفة  
على انتدابه وطلب منه مباشرة العمل بداية من ذلك اليوم.  
يحضر شهاب إلى مقر الصحفة بداية من الساعة الرابعة  
ويتواصل إلى ما بعد العاشرة ليلاً.

بدت على شهاب علامات السعادة منذ اليوم الأول  
لعمله.. فقد كان حريصاً على قراءة البروفة بشكل دقيق  
ويشير إلى كل خطأ يعثر عليه.

مع مرور الأيام، بدا شهاب يتعرف على الصحفيين  
الذين كانوا يعملون في الجريدة.. وكان بعضهم يأتي إلى  
قاعة الاصلاح والمراجعة حيث كان يجلس شهاب كل  
مساء منهمكاً في عمله.. لم يكن شهاب هو المصحح الوحيد

في الجريدة فقد كان معه مصححان آخران، لطفي وسي عبد القادر الرجل الذي كانت تبدو عليه علامات الوقار فهو يرتدي جبة أنيقة ويضع على رأسه شاشية حمراء ويلف رقبته بكشكوك من الحرير البني اللون..

وسي عبد القادر يحترمه الجميع في الجريدة لأنه على قدر كبير من الثقافة.. لا يكتف بتصحيح الأخطاء المطبعية بل يصلح أيضا الأخطاء اللغوية وأخطاء التركيب. عرف شهاب أن سي عبد القادر هو من رجال التعليم وهو يدرس في الصباح ويأتي في المساء إلى الجريدة.. يقول عن نفسه أنه من جيل التأسيس للمدرسة الحديثة في تونس رغم أنه خريج الزيتونة.. استلطف سي عبد القادر شهاب لما رأى فيه من دماثة أخلاق وحماس.

فكان يسمح لنفسه بممازحته.. وسي عبد القادر رجل يحب النكتة لأنه جريدي أصيل.. وكان يقول أنه من

جبل البشير خريف ومصطفى خريف ومحى الدين خريف.. وكان يحدثهم هن ذكرياته مع البشير خريف وروايته الدقلة في عرائجinya ورواية بلارة.

البشير خريف الذي كنت لا تراه إلا وهو ماسك بغليون وببيده قفته الشهيرة التي حوت نماذج وعناوين مختلفة مع الكتب.. يأتي كل صباح إلى مقهى المغرب حيث يتحول مجلسه إلى مجلس أدبي وفكري.

ويرسل سي عبدالقادر تنهيدة كبيرة ويقول :  
- يا حسرة على قهوة المغرب.. كان مجمع الأدباء وامثقفين وعلية القوم. تحول مكانها الآن إلى متجر لبيع الملابس الجاهزة.

يحب شهاب الاستماع إلى هذه الحكايات من سي عبد القادر الذي كان كثيراً ما كان يمزج كلامه بالنكتة

الجريدة التي يتقنها. ولكن سي عبد القادر يحب شيئاً آخر. هو يحب الرئيس الحبيب بورقيبة ويعتبره قائد الأمة ومحرر تونس من الاستعمار ومؤسس الدولة الحديثة. وذات مرة دخل في خصام مع أحد الصحافيين الذي أراد أن يشاكسه عندما قال له أن الرئيس بورقيبة حرم البلاد من أن تعيش التعددية الحزبية والسياسية منذ بداية السبعينات.. ولو سمح وقتها بالتعددية الحزبية لجنب البلاد الكثير من الوليات والهزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

لم يقبل سي عبد القادر هذا الكلام من الصحفي وقال له أنت من المتحاملين.. كيف يتقول هذا الكلام وبورقيبة سمح للحزب الشيوعي بالتوارد منذ السبعينات إلى جانب الحزب الذي يرأسه.

أدرك شهاب أن سي عبد القادر لا يمكن إقناعه بسهولة بأن بورقيبة مثلما له إنجازات أيضاً له أخطاء

وحتى يحافظ على ما يكتنفه له من محبة وود لم يشاً أن  
يفتح معه مثل هذه المواضيع.

عدل سعيد عبد القادر من وضع شاشيته على رأسه  
باستعمالتها قليلاً إلى اليسار وامتدت يده إلى كأس الشاي  
الأخضر الذي أمامه وسأل شهاب عن أسماء لأشخاص  
يعرفهم من مدینته.

قال له فلان الذي أسألك عنه كان زميلاً لي في  
جامع الزيتونة.. وفلان الآخر درس معي في المدرسة في  
إحدى ولايات الشمال لما تم تعييننا لأول مرة. يا حسرة.

سي عبد القادر مضى على اشتغاله في التدريس  
أكثر من ثلاثين سنة وقد درس بعدة مناطق من الجمهورية  
كانت البداية تعيينه في إحدى مدارس سليانة ثم قابس  
ونابل وأخيراً استقر به المقام في إحدى مدارس الكبارية

بالعاصمة.. هو لا يحسن اللغة الفرنسية ولكنه متطلع في اللغة العربية ويستشهد في كلامه بالأيات القرآنية والشعر.

عندما ينتهي العمل في الجريدة بعد العاشرة ليلا..

يرافق شهاب سي عبدالقادر نحو إحدى المطاعم الشعبية في باب سويقة وهناك يتناولان وجبة خفيفة من الطعام..

## الفصل الرابع عشر

كادت لبني تسقط مغشيا عليها.. لما علمت بوفاة والدة صديقها الطالب جمال.. وأن جمال رجع إلى مسقط رأسه بعد ما وجد مكانا في قطار منتصف الليل العائد إلى الجنوب والذي يمر عبر قريتهم ويتوقف في محطة هناك..

تمنت لبني أن تكون مع جمال في لحظة حزنه على فراق والدته.. لقد أصبح الآن جمال وحيدا بعد أن فقد والده منذ سنوات والتحقت به أمس والدته.

أحسست لأول مرة بحب جارف نحو جمال.. ربما لم تتوفر من قبل الفرصة لاختبار مدى صدق عاطفتها نحوه.. كانت علاقتها به في السابق مجرد علاقة بين زميين يدرسان في نفس الكلية.. جمعت بينهما عدة قواسم

مشتركة فأصبحا قريبين جدا من بعضهما ولكن أبدا لم تكن تدري أن علاقتها بجمال ليست مجرد علاقة زميلين في الجامعة..

تمنت لو كانت معه.. تقاسمه لحظة حزنه.. وتقف إلى جانبه في هذا المصايب الجلل..

ما أقسى أن يفقد الإنسان والدته.. وهو في أشد الحاجة لوقوفها إلى جانبه ووجودها معه..

ودون أن تشعر انخرطت لبني في نوبة جديدة من البكاء والعويل.. كان التي ماتت هي أمها وليس أم جمال صديقها.. يومها لم تجد رغبة كبيرة في الدخول إلى قاعة الدراسات.. ليس لديها أي رغبة في الدراسة.. ما يشغلها الآن في هذه اللحظة هو وضعية جمال.. لا شك أن أبناء قريتهم قد أحاطوا به في هذه الظروف ولن يتركوه وحيدا..

في هذه الظروف الصعبة.. تمنت لم تلتحق به الآن لتكون إلى جانبه.. ولكنها ترددت.. ربما سيد جمال في التحاقها به في مسقط رأسه إحراجاً أمام أهله.

تمنى جمال لو كان القطار يسير بسرعة أكبر.. فقد غادر منذ منتصف الليل العاصمة وما زال لم يبلغ بعد مدينة سوسة وال الساعة قاربت الخامسة صباحاً.. كان جمال طوال الطريق يبكي وينتحب.. ويحاول إخفاء بكائه على بقية المسافرين.. لم يتصور أبداً أن يفقد أمه في لحظة غيابه.. لقد كانت بالنسبة له الأب والأم بعد وفاة والده.. ضحت بكل شيء من أجله.. وتمردت أياماً وليلات من أجله.

دفع والده ثمن انتقامه السياسي بخمس سنوات سجن ومثلها سنوات نفي. ليموت بعد إتمام عدة العقاب بشهر واحد.. وبقيت أمه تعاني وحدها صروف الدهر ولكن لم

تشعره أبداً في يوم من الأيام بالتعب أو الضجر.. كانت دائمًا تتحثه على النجاح في دراسته.. ولا يجب أن تشغله سوى دراسته وأن يكون دوماً متفوقاً إذا أراد أن يرضي والده في قبره. كما كانت تقول له والدته..

قاربت الشمس من البزوغ والقطار بدا يقترب من محطة الصخيرة.. ما زالت أمامه أكثر من ثلاثة ساعات للوصول إلى قريتهم.. هو يريد أن يصل بأقصى سرعة.. كيف ماتت أمه ومتى ماتت ومن كان إلى جانبها عندما ماتت ومتى مرضت أصلاً ولماذا لم يعلموه.. أسئلة كانت تملأ رأسه ولا يجد لها جواباً.. تمنى لو كان إلى جانب أمه في ساعاتها الأخيرة.. تمنى لو ملأ صدره بأنفاسها عندما يحنو عليها مقبلاً إليها.. تمنى لو أنه لم يذهب إلى الجامعة أصلاً ليتفرغ لرعاية والدته.. ولكن هي لم تقاتله بمرضها أبداً وبحاجتها ليكون إلى جانبها.

كان يلطم وجهه.. لماذا لم ينتبه.. لماذا لم تخبره صليحة ابنة عمه بمرض والدته.. صليحة التي كانت تنتظر عودته من الجامعة في كل عطلة لتكثُر من ترددتها على بيتهم بحجة مساعدة والدته على قضاء حاجياتها. ولكن هي كانت تريد أن تكون قريبة من جمال الذي تحبه. صليحة التي يزداد حبها لوالدته كلما عاد هو من الجامعة.. وعندما تحين لحظة عودته إلى تونس بعد انتهاء العطلة. كانت تطمئن بأنها ستكون إلى جانبها في كل وقت.. هي تعتبرها بمثابة أمها.. كانت تقول لجمال وهو يحزم حقائبه باتجاه محطة القطار عائدا إلى العاصمة.. لا تحمل هم خالي "مني" هي أمي مثلما هي أمك. ويضغط جمال على يد صليحة قائلا : هنيني.. كوني بالنسبة لها ابنة وساعديها ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

لم يشعر جمال والقطار يواصل سيره عابرا البراري  
والمدن كالشعبان وبدا يقترب شيئاً فشيئاً من قريتهم.. لم  
يشعر بالرغبة في صفع صلحة لأنها لم تعلمه بمرض  
والدته مثلاً شعر بها الآن.. صلحة التي كانت تستعمل  
كل الحيل لتكون إلى جانب والدته وتقضى أكثر ما يمكن  
من الوقت في بيتهما كلما عاد هو من العاصمة.. لماذا لم  
تعمله إلا لأنها في لحظاتها الأخيرة..

ارتمت لبني على أول مقعد في المقهى المجاور  
للكلية والذي اعتادت أن تجلس فيه مع جمال.. وسحبت  
سيجارة من علبة السجائر بحقيقتها.. أشعلتها.. بقداحتها  
الذهبية ثم وضعتها بين شفتيها.. وتمنت لو كانت لديها  
القدرة لتمتص دخان السيجارة في نفس واحد لتطفئ ما  
يعترفها في هذه اللحظات من شعور بالحزن وألم الفراق..

## الفصل الخامس عشر

بعد أيام قليلة من التحاقه بالمدرسة العليا للفلاحة.

بدأ عصام يندمج في الأجزاء الجامعية والطلابية رغم ما

كان يبدو عليه من خجل وتردد في بعض المناسبات..

تعرف على زميلته لوقا القادمة من السنغال للدراسة

بتونس.. لا يعرف عصام ما الذي جذبه إلى لوقا الفتاة

السوداء البشرة والتي كانت تأتي إلى المدرسة العليا للفلاحة

فتلتفت نظر الجميع بظفائر شعرها الأسود والذي كان يزيدها

جمالا كلما ابتسمت.. لم تكن لوقا تحسن اللغة العربية جيدا

ولكنها كانت تحاول أن تتكلم باللغة العربية. فقد جاءت إلى

تونس منذ بداية الصائفة وبدأت تتدرب على الكلام باللغة

العربية حتى يسهل عليها التواصل مع زملائها الطلبة ومع

المحيط العام الذي تعيش فيه.. أصبح عصام يشعر بميل نحو زميلته لocha وكثيرا ما شاهدهما بقية الطلبة معا إما في المقهى أو في الفضاء المدرسة أو في المكتبة يراجعان معا.. كتبت لocha لوالدتها في السنغال في إحدى رسائلها أنها تعرفت على زميلها التونسي الطالب عصام وهو يساعدها في المراجعة وفي سرعة الاندماج في الأجواء التونسية.. وهي لم تشعر من ناحيته بأي جفاء.. بل أنها تشعر بأنه قريب منها جدا وقريبة منه.. تحرص لocha على تسجيل يومياتها في تونس في كراس جميل.. وتحاول اطلاع والدتها على ما يستجد في حياتها.. ولكن عصام لم يكن ير في اقترابه وقربه من لocha الفتاة السمراء أكثر من علاقة زمالة عادية بين زميل وزميله.. هجر عصام بعد التحاقه بالمدرسة العليا للفلاحة هواية كتابة الأدب وخصوصا كتابة القصص فهو موهوب ونشرت له إحدى

الصحف المشهورة بعض قصصه التي يرسلها بغایة النشر.. منذ أن لاحقته أعين الأمن بعد كتابة قصته الثور الذي بلغ عتيا والتي كاد يدخل بسببها السجن ويطرد نهائيا من الدراسة أدرك أن كتابة الأدب تسبب أتعابا ل أصحابها. فقرر الانقطاع عن كتابة القصص والأشعار ووجد في نفسه ميلا نحو موهبة الرسم الكاريكاتوري.. كان كثيرا ما يرسم الشخصيات التي يحبها أو يكرهها.. بواسطة رسوم كاريكاتورية باللون الأسود ويبالغ في تضخيم عيوب هذه الشخصيات وعندما ينتهي من رسم شخصية من الشخصيات تنتابه نوبة من الضحك لا يعرف سرها.. في أوقات فراغه يتسلى عصام برسم من يريد.. قال في قرارة نفسه - الرسم أسلم.. لا يجلب المشاكل مثل الأدب حاول أن يعطي كل جهده للدراسة.. ولكن كثيرا ما كان يعاوده الحنين إلى كتابة القصص.. لا يعبأ بكلام بعض زملائه

الذين أطلاعهم على موهبته في كتابة القصص.. - ما الذي يجمع بين الهندسة الفلاحية وكتابة الأدب وكان عصام يرد بقوله - وماذا يجمع بين الأدب والطب.. أليس يوسف ادريس الكاتب المصري الشهير هو طبيب في الأصل.. لا يمكن للمهندس الفلاحي أن يكون كاتبا ؟؟ بالغ الطلبة في احتجاجاتهم وأصبحوا يعقدون الاجتماعات في كل وقت.. وكان عصام لا يختلف عن هذه الاجتماعات وبلغ أمر الطلبة إلى حاكم البلد.. الذي أذن بردعهم - جمع حاكم البلد وزراءه وأطلاعوه على ما يجري في الجامعة من أحداث، استشاط حاكم البلد غضبا.. ويومها رفض أن يتناول طعام الغذاء.. كيف يمكن لهؤلاء الشرذمة أن يهددوا أمن البلد ويحولون الجامعة إلى فضاءات لقذاراتهم والتقت إلى وزير التعليم - كيف تسمح بهذا التجاوز.. أيها الوزير.. ألم يكن من الأجر ردع هؤلاء الطلبة الأوباش

وأضاف في لهجة حادة.. هذه الدولة بنيتها بعرقي وتعبي وسنوات سجني ونفيي وكفاحي.. كيف يمكن لهؤلاء الطلبة أن يهددوا أمن البلاد.. بلع وزير التعلم لسانه.. لم يجد ما يقوله لحاكم البلاد الذي كان الشرر يتطاير من عينيه. قال وزير الداخلية الذي كان جالسا قبالة الحاكم - سنقوم برد هؤلاء المارقين سيدى الرئيس.. سنتسيهم اليوم الذي ولدتهم فيه أمهاتهم.. وقاطعه وزير الدفاع - فعلا.. نحن تشاهنا كثيرا مع هؤلاء الطلبة.. إنهم شرذمة ظالة. حرج الرئيس وزير التعليم بنظرة كلها ازدراء وكأنه يريد أن يقول له .. في عهده عرفت الجامعة كل هذا التسيب.. وبلهجة تقترب من الوعيد خاطب وزراءه - لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر.. الجامعة للدراسة.. ومن أراد أم يمارس السياسة فليخرج منها.. الجامعة للدراسة.. هل فهمتم.. أوما كل الوزراء برؤوسهم وقال أشجعهم - نعم سيدى الرئيس..

الجامعة للدراسة.. ولا يمكن لهؤلاء الطلبة أن يستضعفوا الدولة.. الدولة لم تكن في يوم من الأيام ضعيفة.. سنأتيك بأخبارهم سيدى الرئيس. كان عصام الطالب المشاكس يتلهى برسم بعض الشخصيات.. وكانت زميلته لocha تتبعه في إعجاب.. لقد تعطلت الدروس في الجامعة بسبب اضرابات الطلبة المتواصلة.. قالت لocha بلهجة فرنسية مخاطبة زميلها عصام - أنت رسام ماهر.. تملك موهبة ممتازة.. جاءت الأخبار إلى الطلبة بأن الحكومة اتخذت كل الإجراءات لردع كل من يحاول تعطيل الدروس أو تحويل الفضاءات الجامعية إلى منابر سياسية وأن هناك قوائم بأسماء طلبة سيتم إيقافهم والتحقيق معهم..

## الفصل السادس عشر

ارتعشت السيجارة بين أصابع جمال.. وهو يغادر منزلهم باتجاه محطة القطار بعد مرور أسبوع على وفاة والدته.. سحب السيجارة من فمه ورمى بها أرضا وداسها بحذائه وعادوته نوبة البكاء.. كانت ابنة عمه صليحة تراقبه عن بعد، بعد ان اختفت في إحدى زوايا البيت وكانت تبكي وتتنحّب.. لم تستطع أن تحجب دموعها أو تخفي حزنها وهي ترى جمال ابن عمها في تلك الحالة من الحزن الشديد على فراق والدته عمتى مني كما كانت تناديها.. كان على جمال أن يعود إلى العاصمة ويلتحق بالكلية لمتابعة دراسته.. تمنت صليحة أن تكون في وضع يسمح لها بمرافقه ابن عمها جمال لتخف عنّه أعباء الحزن الشديد

الذي يشعر به.. ولكنها كانت تدرك أنها لا تستطيع وأن والدها لا يسمح لها بذلك حتى ولو كان جمال هو ابن أخيه الذي يعتبره واحدا من أبنائه. تمنت صليحة أن يودعها جمال ولو بكلمة واحدة.. فهي تحبه وتنمراه فارسها.. ولكن جمال لم يكن في وضعية تسمح له بأن يقول كلاما حلوا يسعد قلب صليحة.. التحقت به قبل أن يبتعد - جمال..

هذا قدح الحليب الذي كانت عمتى مني تملأه بالحليب وتعطيه لك لشرب منه قبل أن تغادر البيت، التفت جمال إلى ابنة عمه صليحة.. وهم أن يحضنها.. ولكنه تردد وأمتدت يده إلى قدح الحليب ليشرب منه كما كان يفعل ذلك في كل مرة يغادر فيها البيت وتلح عليه أمه في شرب الحليب - اسمع يا ولدي الحليب كله بركة. ثم تأخذه في حضنها بعد أن يدفن هو رأسه على صدرها وتشرع في قراءة آيات من القرآن كانت توصيه وهو يبتعد عنها بعد أن

ترمي وراءه كمية من الماء.. اسمع يا جمال يا ابني.. لا تنسى أن تقرأ في كل مرة تشعر فيها بالضيق سورة "الم" نشرح لك صدرك". فيجيبها جمال مبتسما - سأفعل يا أمي.. لا تقلقي.. اسمعي يا صليحة.. لا تنسى أن تأتي إلى البيت كل يوم.. لا تتركيه مغلاقا.. لا أريد أن يبقى هذا البيت مغلاقا.. سأعود قريبا.. وأسرع جمال.. فقد أزفت ساعة وصول إلى القطار إلى المحطة وعليه أن يلحق المحطة قبل أن يمر القطار. مرت أيام صعبة على لبني في غياب جمال.. ودت لو التحقت به إلى قريتهم لمشاركه حزنه على رحيل والدته التي كثيرا ما كان يحدثها عنها، حتى أنها أحبتها دون أن تراها ولو مرة واحدة في حياتها من خلل وصف جمال لوالدته مني - اسمعي يا لبني.. والدتي مني أجمل النساء.. الوشم الظاهر على جبينها يزيدها جمالا.. قمحية اللون.. طويلة القامة.. عيناهما

خضروان.. تزداد وسامة كلما نزف العرق من جبينها.. هي كالغزاله.. عندما ترتدي ملحفتها السوداء وتحت الملحفة قميصها الوردي ومريل فضيلة ويحيط بخصرها حزامها المزركش الألوان.. ثم يلتقت إلى لبنى ويقول لها - هل رأيت امرأة أجمل من هذه فتضحك لبنى وتقول - إلا أمري فيقول جمال - لا مستحيل.. مني هي أجمل النساء. جمال معجب بأمه.. فهي التي رعته صغيراً وكبر في رعايتها.. يذكر أن أحد الجيران تقدم لها بعد وفاة والده وهي ما تزال صغيرة طالباً يدها بعد أن ماتت زوجته. فقللت له - حياتي الآن لإنني.. لا رجل يمكن أن يدخل حياتي بعد المرحوم.. لا عطر بعد عروس. تضحك لبنى وتقول مستقرة جمال - هل قالت له هذا المثل كما تقوله أنت الآن. هي لا تعرفه ولكنها كانت تستبطنه ثم يتوجه بالسؤال إلى لبنى - وأنت هل تعرفين قصة المثل.. لا عطر بعد

عروسي - لا لا. طبعاً ويروي جمال قصة المثل للبنى..  
لقد مات زوج إحدى النساء وكانت معجبة به إلى حد  
العشق.. وعندما مات حزنت لوفاته حزناً شديداً.. وكانت  
تزوره في قبره تتنحّب على قبره كل يوم.. حتى فقدت كل  
مظاهر الجمال وأهملت العناية بجسمها وأصبحت تخرج  
منها رائحة منفرة. فما كان من أحدى جاراتها بعد أن رأتها  
في تلك الحال إلا أن نصحتها بالاستحمام ووضع العطر  
الذى يناسبها. فقالت لها - من أين يا جارة.. تتصحّيني  
بالعطر.. لمن أتعطر.. وأضافت - لا عطر بعد  
عروسي.. فذهب قولها مثلاً. يا لفصاحتك يا جمال..  
ويستغرقان في نوبة من الضحك..

## الفصل السابع عشر

توطدت علاقة سامح بزميلته إيمان.. أصبحا لا يفترقان إلا في ساعة متأخرة من المساء عندما تعود إيمان إلى بيت عائلتها ويعود سامح إلى المبيت الجامعي برأس الطابية.. يراجعان معاً ويتقسان معاً.. ويدهبان إلى قاعة السينما معاً..

كثيراً ما حدثت إيمان زميلها سامح عن حبها للسينما.. فهي تذهب على الأقل مرة في الأسبوع لمشاهدة أحدث ما تعرضه قاعات السينما من أفلام عربية وغربية وهي تحب كثيراً الأفلام التي شارك في بطولتها فاتن حمامة وشادية.. أما سامح فهو مغرم بمشاهدة الأفلام الأجنبية.. هو يرى أن الأفلام العربية تدور في حلقة مفرغة

لا تخرج عن نطاق الحب والخيانة الزوجية.. قليلة هي الأفلام التي تعالج قضايا سياسية أو تقترب من هموم الناس الحقيقية.. وهو يفضل قراءة الكتب عن مشاهدة الأفلام والأشرطة السينمائية.. ويحب كثيرا روايات نجيب محفوظ وخاصة ثلاثة السكرية وبين القصرين وقصر الشوق وروياته الأخرى.. أما إيمان فإنها تحب روايات توفيق الحكيم وترى أن توفيق الحكيم أفضل من نجيب محفوظ وتباهى أمام سامح بأنها قرأت أغلب روايات توفيق الحكيم ومسرحياته مثل شهزاد ويا طالع الشجرة وحمار الحكيم وعصا الحكيم ويوميات نائب في الأرياف.

أما سامح فإنه كثيرا ما يدخل معها في نقاش - لا. لا أنا أرى أن نجيب محفوظ أفضل من توفيق الحكيم.. توفيق الحكيم يبدو لي كاتبا برجوازيا فهو لم يتخل عن صفتة كقاض حتى وهو يكتب كتاباته معقدة.. هو ابن

المدرسة الغربية متأثر إلى حد كبير بجون بول سارتر.. كتاباته يغلب عليها الطابع الوجودي.. أما نجيب محفوظ فإنه ابن البيئة المصرية.. عندما تقرأ الثلاثية يدخلك من حيث لا تدري إلى أجواء الحارة المصرية وينقل مشاغل الناس البسطاء.. هكذا يجب أن يكون الأديب أو الكاتب لسان حال البيئة التي يعيش فيها.

وتصر إيمان على رأيها - أنت تظلم توفيق الحكيم.. أنا أرى أن توفيق الحكيم بلغ القمة في حمار الحكيم وعصا الحكيم ويوميات نائب في الأرياف.. إنك تحك على توفيق الحكيم دون أن تقرأ له. ويشعر سامح بالضيق ويقول لإيمان - أنت متعصبة له.. لو قرأت لنجيب محفوظ لغيرت رأيك.

الساعة الآن الرابعة مساء.. وشارع الحبيب بورقيبة يعج بالرائحين والقادمين من المارة.. وعلى جنبي الطريق

انتصبت المقاهي والدكاكين وال محلات التجارية والمكتبات وقاعات السينما.. وعلى طرف الشارع من اليمين تنتصب الكنيسة ومن حين لآخر يصدر عنها صوت الناقوس.. ويدخلها عدد من المصلين من المسيحيين يمارسون طقوسهم بكل حرية. أما في الطرف الآخر فقد انتصب المسرح البلدي ببنائه الشامخة.. هنا في هذا الفضاء كانت لرجال المسرح صولات وجولات.. كبار المسرحيين والمخرجين المسرحيين من الشرق والغرب عرضوا مسرحياتهم هنا.. هنا عرض علي بن عياد أفضل المسرحيات.. مراد الثالث وغيرها من روائع المسرح العالمي.. وقف سامح وإيمان أمام بناية المسرح البلدي.. وعلى مدرجاته الأمامية جلس عدد من الشباب. قال سامح مخاطبا إيمان - تعالى نجلس مثهم. اتخذ سامح وإيمان لهما مكانا في أعلى المدرج من جهة اليمين.. بدت لهما

بنية نزل الهناء الشامخة بطوابقها تثير في نفسيهما الرغبة  
في شرب قهوة في الفضاء الخارجي أسفل البناء.

قالت إيمان : - ألا تريد أن تشرب قهوة.  
رد سامح : - أنت تدفعين.. كل ما أملكه من ثروة  
اشترت به كتابا من مكتبة الكتاب.

ضحكت إيمان وأخذت سامح من يده تساعده على  
ال الوقوف وقطعوا الشارع باتجاه المقهى. خير سامح أن يجلس  
وإيمان في الفضاء الخارجي هو لا يتحمل رائحة التدخين  
المنبعثة من الفضاء الداخلي حيث كان عدد من الجالسين  
يدخنون بشرابة ويعحسون الجعة. طلبت إيمان عصير  
برتقال وطلبت سامح قهوة مضغوطه وانتحيا ناحية بعيدة  
عن أعين الرقباء.. قال لها تعالى نفعل مثلهم.. تعالى  
نجلس هناك.. ما إن جلسا في الناحية التي اختارها حتى

جاءتهما امرأة في العقد الرابع من عمرها على ما يبدو تبيع عقوداً قدت من الياسمين وعرضت عليهما بضاعتها. قالت مخاطبة سامح - ألا تستحق منك أن تطوق جيدها بعقد من الياسمين. امتدت يد سامح إلى جيبه وأخرج ما بقي به من دنانير ومد لها خمسة دنانير ثمن العقد قال - نعم هي تستحق. وأحنت إيمان رأسها ليطوق سامح حبيبها جيدها بأعلى عقد من الياسمين وقد علا ضحكتهما.

## الفصل الثامن عشر

أصبحت الأجواء في الجامعة مشحونة.. إيقافات متتالية لعدد من الطلبة الذين اعتبرهم النظام عناصر مناوئة تحاول زعزعة أمن البلاد وتعطيل الدروس وجر بقية الطلبة إلى العنف والخروج في مظاهرات ضد النظام.. مجموعة الطلبة الإسلاميين تحاول أن تفرض وجودها مستعملة شتى الوسائل وكذلك المجموعة على اليسار.. ويحاول النظام قدر جهده أن تكون المجموعات الطلابية الموالية له.. قادرة على مواجهة المجموعات الطلابية الأخرى..

دعا حاكم البلاد وزراءه المعينين إلى اجتماع عاجل لاتخاذ القرارات المناسبة. كانت علامات الغضب بادية

على ملامح وجهه عندما التفت إلى وزير الداخلية موجها له كلامه - هذا الوضع لا يجب أن يستمر.. ما الذي يحدث.. كمشة من الأوباش تحاول زعزعة أركان النظام. يحاول وزير الداخلية أن يجيب فيقاطعه الحاكم - لم أدعوك للتكلم أو تبدي رأيك.. أنا الذي أتكلم.. ماذا تنتظرون.. هذه الشرذمة الظالمة من الطلبة تحاول أن تدخل الفوضى في البلاد وأنتم تتقرجون. يغالب وزير الداخلية ما لحقه من شعور بالإهانة ويجيب الحاكم - سيدى الرئيس.. أعدك لن يستمر هذا الوضع. يجيب الرئيس في حنق- أنا لا أريد الزج بهم في السجون.. لا أريد أن يقال عنى أنى أدخل الطلبة إلى السجون لمجرد التعبير عن أرائهم.. لا بد أن تجدوا طرقا أخرى لردع هؤلاء الأوغاد. هناك طرق عديدة غير الزج بهم في السجون.

تمر السنوات بطيئة في السجن منذ أن حكم على عبد الباقي بخمس سنوات سجن.. لأنه قام بتسليس وتزوير في وثائق حالة مدنية.. قيل وقتها أن الحكم على عبد الباقي كان قاسياً وكان يمكن أن تكون سنوات السجن أقل ولكن الحكم أراد أن يلقنه درساً قاسياً حتى لا يعود إلى صنيعه.. مرة أخرى.. فقد تزوج عبد الباقي على غير الصيغ القانونية من امرأة ثانية واحتفظ بها إلى جانب زوجته الأولى وكان في كل مرة يسجل أبناء الزوجة الثانية على أساس أنهم من زوجته الأولى ولم يكن أحد يعلم بهذا السر غير زوجته الثانية التي ما إن قرر التخلّي عنها حتى قررت الانتقام منه وفضح أمره لدى القضاء بعد أن يُؤْسِت في محاولة استرضايه وعدم تسريحها.. ولكن عبد الباقي صمم على إخراجها من حياته ومن بيته مهما كلفه الأمر.

عبد الباقي هذا رجل شجاع وصادق رغم ما يقترفه أحيانا من أخطاء في حق نفسه وهو رجل اشتهر بالكرم والجود. مرت سنوات السجن على عبد الباقي ثقيلة بطيئة وكل يوم من أيام السجن كان بالنسبة له في قيمة عام من السجن وأقصى ما يحرم منه الإنسان هو حريته. يتذكر منتصر الطالب بكلية العلوم قصة سجن والده فيعتصر قلبه ألمًا.. ليت والده لم يقدم على فعلته حتى لا يضيع أحلى سنوات عمره في السجن.. منذ أن التحق منتصر بكلية العلوم أراد أن يسخر كل جهده للنجاح في دراسته.. لم ينخرط كباقي زملائه الطلبة في التشكيلات الطلابية.. كانت تدرس معه في الفصل زميلته أحلام القادمة من أحدى ولايات الشمال.. والدها فلاح يملك أراضي كثيرة وعقارات في العاصمة.

كان منتصر في أيامه الأولى بالجامعة يبدو منكفاً على نفسه، خجول إلى حد أن وجهه يحمر كلما كلمته إحدى الطالبات.. هو قادم من قرية من قرى الوسط التونسي ووالده ليس فلاحا ثريا أو يملك عقارات مثل والد زميلته أحلام. كان في البداية يتتجنب الحديث معها.. هو لم يكن يعرف السبب ولكن أحلام كانت تلاحقه.. ربما استطافته دون بقية زملائها الطلبة الذين كانوا يتمنون ودها ورضاءها عنهم.. هي لا تعرف لماذا استطافت زميلها منتصر دون بقية الطلبة ولكنها كانت تشعر نحوه بميل عميق.. ربما لأنه كان وسيما، أسود الشعر، أشقر الوجه، طويل القامة.

طلب حاكم البلاد من وزرائه إيجاد حلول. قال أحد وزرائه :

- سيدى هؤلاء الطلبة.. لا يصلح معهم اللين..

نحن والشعب كله يعرف.. طيبة قلبك ولكن هؤلاء لا ينفع  
معهم أن تكون لين القلب.. هم يستضعفون الدولة التي لم  
تكن في يوم من الأيام تحت قيادتكم الرشيدة ضعيفة.

قال وزير آخر :

- سيدى.. أنا عندي اقتراح أعرضه على جنابكم..

هي عقوبة تأدبية لا أكثر ولا أقل.. قلا هي بالسجن الذي  
لا ترضونه للطلبة ولا هي بالاستراحة حتى يشعر هؤلاء  
الطلبة المارقون بذنبهم.

أدرك وزير الداخلية أم الأمر سيفلت من يده.. فقال

مخاطبا الرئيس :

- في رأيي هؤلاء الطلبة.. لا يمكن أن نتمادى

معهم في اتباع سياسة اللين.. وقرص الأذن ثم نتركهم..

ليعودوا إلى ما كانوا عليه.. لا يمكن أن نسمح بتواصل الحماقات.. عندما يشعر هؤلاء الطلبة أن الدولة قوية سيرتدعون وسيكفون على ما يقومون به من أعمال تهور وتخريب.

كان الحاكم يستمع بانتباه إلى أراء وزرائه.. الذين كان كل واحد منهم أن يقدم الحل الذي يراه مناسبا وفي الخارج كانت الأوضاع تزداد تأزماً وحدة.. فقد بالغ الطلبة في تمردتهم..

وضاق صدر الحاكم ذرعاً وقرر اتخاذ ما يجب اتخاذه لردع الطلبة المارقين.

## الفصل التاسع عشر

أنهى شهاب عمله في الجريدة بعد أن أكمل إصلاح كل البروفات التي قدمت له وقرر الخروج لتناول قهوة قبل أن يعود إلى البيت الذي اكتراه مع أحد أبناء منطقته الذي قدم إلى العاصمة بحثا عن عمل.. استهواه جلسة في القضاء الخارجي لمقهى نزل الهناء الدولي.. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف ليلا.. وبدا الزوار يغادرون المقهى وحتى الحركة في شارع الحبيب بورقيبة بدأت تهفت قليلا.. ولم تعد كما كانت في بداية المساء ..

الجلوس في مقهى الانترناسيونال له نكهة خاصة فهو مقهى مطل على الشارع الرئيسي ونسمات الليل تهب خفيفة تتعش الأجسام.. لم يكن شهاب مقتعا بعمله في

الجريدة فالاجر الذي يتقاضاه في نهاية كل شهر لا يسمح له بالجلوس كثيرا في المقاهي أو ارتياض المطاعم الضخمة.. فهو فقط يكفيه لتسديد معلوم الكراء وما يتبقى هو مصروف يومي.. طلب شهاب قهوة وراح يفكر.. هل سأمضي عمري كله مصححا في جريدة.. لا بد أن أجد عملا.. العمل في الجريدة ليس عملا قارا ويمكن للجريدة أن تستغني عني في أي وقت.

ذات مرة حدث صديقه وزميله في الجريدة سي عبد القادر عن رغبته في أن يكون معلما مثلا فهو يعيش هذه المهنة.. ووعده سي عبد القادر بالمساعدة.. قال له أنه يعرف مسؤولا في الوزارة سيكلمه عنه.. لا شك أنه سيساعده.. ولكن مضت مدة طويلة منذ أن وعده سي عبد القادر ولم يجد أي جديد.. جلست قبالته فتاة شقراء وأخرجت من حقيبتها سيجارة من النوع الفاخر وطلبت قهوة من

النادل الذي ما إن جلست حتى جاءها مسرعا طالبا منها ما  
تريد.. لا شك أنها زبونة دائمة اعتادت الجلوس في هذا  
المقهى.. فقد تبادلت مع النادل بعض الكلام الذي فهم منه  
شهاب أنها زبونة اعتادت الجلوس في هذا المقهى لتناول  
قهوتها..

لم تهتم به هذه الفتاة رغم أنه حاول أن يركز نظره  
عليها عدة مرات.. فقد انشغلت بفتح جهاز صغير كانت  
تحمله معها أخرجته من حقيبتها وراح تعالجها.. حانت  
منها التقاتة إلى شهاب وقد بدا المقهى يخلو من زواره  
فوجده ينظر إليها في استحياء وخفية.. ابتسمت له ثم  
أردفت بلغة فرنسية : بون سوار.

تلعثم شهاب في البداية.. أذهلت المفاجأة.. هل  
كانت تعنيه هو عندما قالت بون سوار.. التقت يمينا

وشمالا.. لم يجد أحدا غيره يجلس قربها.. عرف أن التحية كانت موجهة إليه.. قال في استحياء : بونسوار.

هي ربما لم تسمعه فقد عادت إلى الانشغال بالجهاز الصغير الذي كان بين يديها.. ثم أخرجت سيجارة ثانية من حقيبتها وأشعلتها.. وضع النادل أمامها القهوة.. ابتسمت وقالت له :

- تأخرت.. كدت أغادر.. هل أتيت بها من المنزه.

- المنزه.. يا لهذه الكلمة السحرية.. قال شهاب في قرارة نفسه.. لا بد أنها إحدى بنات هذه الضاحية الراقية.. حاول أن يسرق النظر إليها مرة أخرى.. بدا له وجهها وقد انسدل شعرها الذهبي يغطي بعض جنبات الوجه كقمر مشرق في ليلة ظلماء..

اه بناة المتنزه جميلات أكيد من بناة العائلات  
الراقية.. أعادت الفتاة النظر إليه.. أدركت إنه منشغل بها..  
أخذت قهوة بيتها بيدها وحقيبتها وعلبة سجائرها وقامت.. كان  
يعتقد أنها ستجلس في مكان آخر ولكنها جاءت إليه ثم  
خاطبته :

- هل تسمح أجلس معك.

باغته المفاجأة.. ضاعت الكلمات من فمه..

- نعم.. نعم تفضلني.

ضحك ثم قالت :

- رأيتكم منشغلة بي.. تسترق النظر فأردت أن  
أريحك وآتي إليك.. أنا إسمي هند.

- هند ؟

- نعم..

دون أن يشعر استحضر بيت عمرو ابن كلثوم :

- كلما قلنا متى الموعد.. ضحكت هند وقالت بعد

. غد.

لم يدرك أنه كان يردد البيت الشعري أمامها بصوت

عال وهي لا تزال واقفة.

- انت شاعر أذن

- لا لست أنا صاحب البيت.. هذا عمرو ابن

كلثوم.

- قالت ضاحكة :

- يسكن في المنازه أم في قرطاج.

- لا بل يسكن في الجبل الأحمر.

ضحكا معا. قالت له :

- يبدو أنك مجامل كبير.. وأنت ما إسمك.

- أنا إسمي شهاب.. من الجنوب أعمل مصححا

صحفيا، أدرس في كلية علم الاجتماع.

- ياه.. أنت مثقف كبير.. أنا يا دوب الباكالوريا..

سامح الله المسудى بسده الصعب.. فشلت في الامتحان

فقررت ألا أعيدها.. وأنا أشتغل سكرتيرة الآن في شركة..

الحمد لله.

- ما أسهل الحصول على عمل عندكم يا أبناء

العاصمة.

ضحك.. وقالت .. أنا طرقت باب إحدى الشركات

بغاية الحصول على عمل موسمي في الصيف. تم قبولي

وبسرعة طلب مساعد المدير العام أن أكون سكرتيرته

الخاصة.. وجدت الأجر مغريا فبقيت..

- ألم أقل لك أن الشغل عندكم يا أبناء العواصم

أسهل مما يتصوره العقل.. لو طرقت أنا باب هذه الشركة

لأطرودني.

- ماذا تشرب.. أريد أن تشرب شيئاً على حسابي..  
أنت لطيف جداً.

اعتذر شهاب وقال لها :

- أنا شربت.

أصرت هند أن يشرب مرة أخرى أي شيء آخر على حسابها. بدا عدد من الرواد في المبنى الداخلي يغادرون المكان.. فقد بدأت الساعة تشير إلى تمام الحادية عشر والنصف ليلاً.. أدركت هند أن الوقت تأخر ولم يعد بإمكانها البقاء أكثر في لمقهى.

استأذنت من شهاب في المغادرة.. قال لها :  
أنا أيضاً سأغادر.

دفعت هند الحساب وابتلعهما الشارع الطويل فقد  
قارب الليل من الانتصاف.

## الفصل العشرون

على غير عادته بدا شارع الحبيب بورقيبة شبه خال من المارة.. هناك شعور بالانقباض يسيطر على الجميع.. حتى المقاهي على جنبي شارع الحبيب بورقيبة بدت شبه فارغة.. ما الذي يحدث في تونس هذا الصباح..

بالأمس كان الشارع مسرحا لعدة ملاحقات من رجال الأمن لعناصر قيل أنها حاولت التظاهر.. ولكن رجال الأمن اعتربوا المتظاهرين من كل اتجاه وحاولوا صدهم.. ومنعوهم من مواصلة المسيرة.. فتجمع الكثير أمام ساحة المسرح ورفعوا شعارات تطالب بتغيير النظام.. كان أغلب المتجمعين ينتمون إلى فئة المثقفين من رجال مسرح وروائيين وشعراء.. حاول الأمن تفريقهم ولكنهم أصرروا على

البقاء.. قالوا أن الشارع ملك للشعب ومن حق هذا الشعب أن يعبر عن رأيه.. كان جمال أحد المجتمعين أمام بناء المسرح البلدي.. هو الذي ما زال الحزن يسيطر على كل مشاعره بعد فقدانه لوالدته.. صعد ثلاثة أو أربعة درجات ثم أخذ الكلمة وخطب الحاضرين..

- نحن لا نخاف.. نحن باقون هنا.. الشارع لنا.. لقد أزفت ساعة الرحيل.. لن ترهبوننا. كان جمال يتكلم بكل حماس.. لم يتقطن إلى وجود عصام في نفس المجموعة.. عصام الطالب بالمدرسة العليا للفلاحة.. تكلم عصام ووصل صوته من بعيد.

- لن نبرح هذا المكان.. بلغوا حاكمكم.. لقد أزفت ساعة الرحيل.

أطلق البوليس قنابل مسيلة للدموع لتفريق المتجمعين.. الذين لم يصدروا أمام كثافة الدخان المتتصاعد ورائحة الغاز الخانقة فتفرقوا وحاولوا الاحتماء ببعض المحلات المجاورة.. لم تلتقي لبنى بجمال منذ ان عاد من مسقط رأسه بعد قضاء أيام هناك إثر وفاة والدته.. فقد انشغلت هي الأخرى بمرض شقيقتها وانقطعت أيام عن الدراسة.. ولكنها كانت تمنى أن يعود جمال بسرعة فقد اشتاقت إليه.. هي تعرف أنه ما زال تحت تأثير وطأة الحزن على فراق والدته ولكنها هي تحبه وتريد أن تظهر له أنها حزينة لحزنه.. جمال أيضا كان يفكر في لبنى وتنوى أن يلقاها بعد عودته من قريتهم..

استطاع شهاب أن ينجح في مناظرة انتداب معلمين.. وتم تعيينه معلما بإحدى المدارس بالعاصمة.. هو لا يعرف هل تدخل له سيد القادر زميله في

الجريدة أما لا.. أصبحت لقاءاته بصديقه هند تتم كل مساء بعد أن تنتهي هي من عملها وينتهي هو من عمله في المدرسة.. ذات يوم سألت هند شهاب :

- شهاب.. هل تحبني ؟

تلعثم شهاب ولم يستطع أن يجيبها.. هل يقول لها أن والدته أوصته عندما جاء إلى العاصمة لأول مرة بأن يتجنب الاقتراب من النساء قدر ما يستطيع. قالت له وهي تودعه في محطة اللواجات :

- شهاب يا بني إياك والاقتراب من النساء.. نساء العاصمة ليست لهن نفس طباعنا.. قيل أنهن يدخن أمام العموم.. يومها ضحك شهاب من كلام والدته.. اطمئنني يا أمي أعرف ماذا تقصدين.. التدخين ليس عيبا ولا يغير المرأة.. وردت والدته في تعجب :

- امرأة تدخن .. هذه نهاية الدنيا ؟؟

أعادت هند السؤال على شهاب :

- أين ذهب تفكيرك ؟

أجابها :

- أشعر بحنين الآن إلى والدتي .. اشتقت إليها

والله .. صمت ثم أضاف :

- أتعرفين بماذا أوصتني أول مرة عندما أتيت إلى

العاصمة منذ ثلاث سنوات.

قالت هند متعجبة تريد أن تعرف.

- بماذا أوصتني ؟

- ضحك شهاب وقال أوصتني بعدم الاقتراب من

نساء العاصمة قالت لي وقتها : لقد قيل أن نساء العاصمة

يدخن ويجلس في المقاهي ويرتدن المطاعم. إياك  
والاقتراب منهن.

ضحك هند وكادت ضحكتها أن تسمع كل  
الجالسين بجوارها.

- هذه أم عظيمة.. أنت لم تتفذ وصيتها.

ضحك شهاب وقال لها تعالى نتمشى في الشارع  
تعبت من الجلوس.

بدأت الحركة تعود إلى شارع الحبيب بورقيبة..  
وبدأت أسراب العصافير تعود إلى الأشجار محدثة زلاقات  
جميلة.. لا يمكن للحركة أن تهدا في هذا الشارع فهي ما  
إن تهدا حتى تعود إلى عنفوانها.. الناس يتمشون وسط  
الشارع والبعض جالس على المقاعد الخشبية وأسراب  
العصافير ترسل زلاقاتها.

تفقدت صليحة منزل ابن عمها جمال كما أوصاها قبل عودته إلى تونس.. طالعتها صورة خالتها مني أم جمال كما لو كانت حية.. كانت هنا تملأ البيت حركة ونشاطا.. وكانت عندما تفتقدها تناديها لتونس وحدتها.. هي تحبها وكانت تتمناها لابنها جمال.. ولكن توجل ذلك إلى بعد تخرجه من الجامعة.. لم تكن هناك أي حركة في البيت.. شعرت صليحة بشيء من الخوف وهي داخل غرفة والدة جمال وفي الأعلى بدت صورة ابن عمها جمال معلقة في براوز جميل.. كانت والدته تريد أن تراه أمام عينيها في كل وقت..

أمام تواصل التحركات الطلابية لم يكن بدا من اتخاذ قرار يؤدب هؤلاء الطلبة.. لم تعد تتفق معهم سياسة اللين والتخويف.. في المساء داهم الأمن عديد الأجزاء الجامعية وألقي القبض على أغلب العناصر التي كانت

تشارك في التظاهرات والمسيرات. لقد تقرر إرسال هؤلاء الطلبة إلى الصحراء لقضاء واجبهم العسكري.. هناك سيساهمون في إحياء قرية رجيم معتوق تحت إمرة الجيش الوطني فلا أحد يمكنه أن يمتنع عن أداء هذا الواجب الوطني.

انتهت الرواية





## ترجمة الكاتب محمود الحرشاني

حاتب وصحافي تونسي، من مواليد 02 نوفمبر 1955

اشتعل في الصحافة منذ سنة 1975 وعمل بالإذاعة والتلفزة التونسية ووكالة تونس للإفريقيا والأنباء وصحف ومجلات عربية كمراسل.

أسس مجلة مرآة الوسط في ماي 1981 واستمرت في الصدور إلى سنة 2013 ورقيا وهي تصدر اليوم الكترونيا. كما أسس مجلة الأطفال برابع الوسط.

حاصل على عديد الجوائز الوطنية والعربية ومنها الوسام الوطني للستحقاق في قطاع الثقافة بأصنافه الرابع والثالث والثاني وجائزة وزارة الثقافة والمنظمة التونسية للتربية والأسرة. يدير حاليا موقع الثقافية التونسية وصاحب قناة أسرار تونسية على اليوتيوب.

أصدر عديد الكتب ومنها : رائحة الأرض، مذكرات صحفي في الوطن العربي، جوائز أدبية في الوطن العربي، فيض الوجдан، قول على قول، رسائل لا تحتمل الاختفاء، البحث عن فكرة، دفتر سفر، وكتب أخرى..

---

حدث في تلك الليلة - المؤلف محمود الحرشاني - الثمن : 12 دينار - تاريخ النشر : ديسمبر 2021  
ISBN 978-9938-72-198-0 - الإيداع القانوني : 31 جانفي 2022

